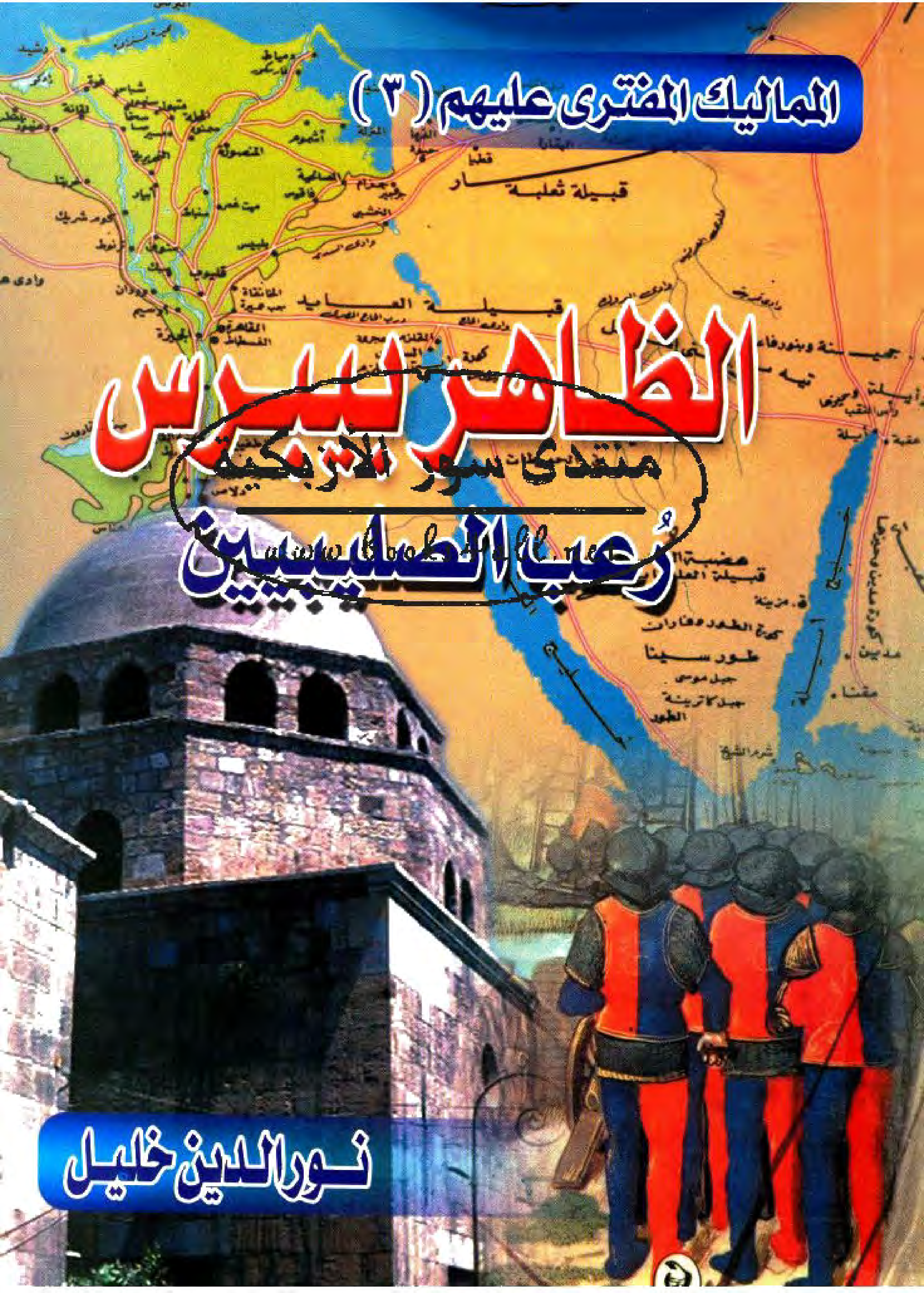

المماليك المفترى عليهم (٣)
الظاهر بيبرس
رُعب الصليبيين
نور الدين خليل

المماليك المفترى عليهم (٣)

الظاهر بيبرس

رُعْبُ الصّليبيين

نورالدين خليل

♣♣♣♣♣

إهـداء

إلى الشهداء الفلسطينـيين

تصـدير

الظاهربيبرس :

هو الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري الصالحى .

خامس سلطان مملوكي بعد :

٠١- شجرة الدر (سلطانة)	١٢٥٠م
٠٢- أيبـك (المعز عزالدين)	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- على بن أيبك (المنصور نورالدين)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- قطـز (المظـفر سيف الدين)	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهرركن الدين)	١٢٦٠- ١٢٧٧م

✸ إسمه على كل لســان ، وسيرته باقية لكل زمان .

✸ بطل همام ، وشجــاع مقـدام .

✸ قويت بقوتـه البلاد ، ورفع أكاليل الغـار فوق العباد .

✸ أجمعت كل المراجع على شجاعته. فيقول المقريزى "كان شجاعا عيوفـا عجـولا".

✸ ويقول أبو المحاسن " كان رحمه الله ملكا شجاعا ، مقـداما غازيا ، مجاهدا مرابطا ، خليقا بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفســه " .

✸ ويقول الذهبى "والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أياما بيضا فى الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات متعـددة" .

✸ ويقول عبد الحميد يونس إنه "الذى ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينـهم بالقسط " .

✸ كما كان مسلما متشددا ، ومحسنا كريما ، وراعيا للأخلاق بين رعيتـه ـ إذ أصدر فى عام ١٢٧١م مرسوما بمنع الخمور .

وقديما قال فيه أحد الشعراء المعاصرين له :

تدبـرالملـك من مصـر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوبى

مقـــدمـــة

١ ـ هذه السلسلـــة :

هذا هو الكتاب الثالث فى سلسلة (المماليك المفترى عليهم) ، وقد صدر منها :

١ ـ شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر .

٢ ـ سيف الدين قطـز ، قاهر المغـــول .

تناول الكتاب الأول الظروف والملابسات المتصلة با لمماليك ونشأتهم وقيام دولتهم . كما تناول أحداث الحملة الصليبية التى قادها القديس لويس التاسع ملك فرنسا على مصر واستيلائه على دمياط وتقدمه حتى مشارف المنصورة وانتهت بهزيمتـه وأسره ومعه الجيش الفرنسى كلـــه . كما تناول الأسرة الحاكمة الأيوبية بعد انتصار صلاح الدين الرائع فى معركة حطين ، والصراعات التى شبت بين سلاطين الأيوبيين طوال الجيل الذى أعقب وفاة صلاح الدين بما فيها الحرب الأهلية الأيوبية ، وحتى آخر ملوك بنى أيوب ، الملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجرة الدر التى تولت حكم البلاد بعد انتصارها على القديس لويس . وعالج الكتاب مصرع السلطان المملوك عز الدين أيبك وزوجتـه شجرة الدر ، والملابسات التى صاحبت مصرعهما وقيام دولة المماليك معالجة تفصيلية . والفصلان الأخيران يركزان على تمحيص وتنفيد آراء المؤرخين الغربيـــين وفيه تساؤلات ليس لها اجابات لدى المؤرخين ، سواء العرب أو الغربيـين ، وهى تساؤلات تؤدى إلى تبرئـــة شجرة الدر من جريمة قتل زوجها السلطان المملوك عز الدين أيبك ، بل وتلقى الضوء على حقيقة أن شجرة الدر راحت ضحية لمؤامرة شارك فيها الطامعون فى عرش مصر ومعهم أم على .

أما الكتاب الثانى ، سيف الدين قطز قاهرالمغول ، فيصحب القارئ من مولد جنكيز خان وتطور الإمبراطورية المغولية وانطلاقها غربا كالإعصار المدمر ، وتخريب بغداد وقتل

الخليفة العابسي فيها ، ثم احتلال سوريا والمرور على فلسطين حيث الصليبيين حلفاء المغول ضد المسلمين ، إلى أن عهد رجال مصر بالسلطنة الى سيف الدين قطز ، وتفصيلات معركة عين جالوت الشهيرة التى هى بحق (من معارك المصير الإنسانى) . كما يتناول الكتاب طبيعة الحملة المغولية الشرسة على العالم ، ويورد شتى الأحداث والملابسات التى صاحبت الإجتياح المغولى وتفصيلات معركة عين جالوت ، ويفنّد مقولات قالها مؤرخون عرب وغربيون لا أساس لها من الصحة . كما يرد فى الكتاب كمّا كبيرا من الرسائل المتبادلة بين شتى الزعماء والملوك ، من جنكيز خان نفسه ، مرورا بمحمد الخوارزمى وهولاكو والخليفة العباسى وسيف الدين قطز وكيربوغا قائد الجيش المغولى فى معركة عين جالوت .

وهذا هو الكتاب الثالث فى هذه السلسلة : الظاهر بيبرس ، رعب الصليبيين .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه السلسلة لا تستهدف الأحداث والتطورات التاريخية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحسب ، وإنما تركز على تجلية المهام العظيمة التى أنجزها المماليك ، وإنصاف عظام المماليك من ذوى الخطر، والقاء الضوء على ما قاموا به من أدوار رائعة مضيئة يشرق بها التاريخ العربى والإسلامى ويفخر . وعلى ذلك فإن هذه السلسة التى تتناول تاريخ العرب والمسلمين فى تلك الحقبة فى مصر والشام ما هى إلى دعوة للمؤرخين ورجال الفكر إلى إعادة النظر فيما يتصل بالمماليك وإنصافهم ، خاصة وأن تلك الفترة شهدت أهم حدثين كبيرين فى التاريخ الإسلامى ، بل فى التاريخ الإنسانى كله وهما :

٢ - الحملات الصليبية :

الحدث الأول ، وهو الأخطر، الحملات الصليبية التى أطلقتها أوروبا المسيحية فى القرن الحادى عشر لتحرير الأراضى المقدسة وقبر الرب من الكفرة المسلمين ، وانقلبت إلى فساد

وسفك للدماء طوال ما يقرب من ثلاثة قرون ، عانت فيها الإنسانية معاناة كبيرة ، وأزهقت أرواح كثيرة ، وسالت دماء غزيرة ، بل عانى فيها مسيحيو الشرق الأرثوذوكس من بنى عقيدتهم المسيحيين الكاثوليك معاناة بالغة ، واستبيحت الكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية فى القسطنطينية وخُنقت ، وسيطر عليها الكرسى الكاثوليكى لفترة من الزمان .

فى عام ١٠٩٥م وقف البابا إيربان الثانى فى مدينة كليرمونت الفرنسية أمام جموع وحشود تنتظر خطابه الذى أذيع أن سيكون له أهمية بالغة ، وإذا به يطلق صيحته الشهيرة التى دعا فيها إلى حمل الصليب والتوجه شرقا لتحرير الأرض المقدسة وقبر المسيح من أيدى الكفرة المسلمين ومناصرة مسيحيي الشرق فى العالم المسيحى الأرثوذكسى ، واعداً من يأخذ الصليب ، أي يضع صورته على ملابسه ويخرج ، بالغفران من الخطايا .

خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الأخر بعد ان عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم ـ أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين

بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم ـ فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ـ لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السماوات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥- ١٦)

(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

واشتعلت الجموع المنصتـة المشدوهـة حماسا ، وراحت تردد فى صياح صاخب : "الرب يشاؤها ... الرب يشـاؤها" . وعلى الفور انطلقت الحشود ، سواء من الفقراء المعدمين المتلهفين إلى أرض اللبن والعسل ، أومن أمراء الإقطاعيين المفلسين الذين حرمهم نظام توريث الإبن الأكبرمن اقتناء الإقطاعيات ، ولاحقا من الملوك والأباطـرة الذين خرجوا بجيوشهـم ، طوعا أو كرها ، انصياعا لأوامر الباباوات أو إشباعا لأطماع خاصـة ، أو تشفيا لأحقاد دفينـة .

الجدول (١) الحمـلات الصليبـية : تواريخهـا وأسمـاؤها ونتائجهـا

التاريخ	إسم الحملة الصليبية	النتائج
١٠٩٦م	حملـة الشعـب	دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م	٣ حملات صليبية ألمانية	مذابح اليهود فى أوروبا ، دمرها المجريون
١٠٩٦م	الحملة الصليبية الأولـى	إنشاء إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م	الحملة اللومبـارديـة	دمرها قلج أرسلان
١١٠١ م	الحملـة النفرسيـة	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٠١ م	الحملـة الأكيتانيـة	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٤٧م	الحملة الصليبية الثانيـة	حصار دمشق
١١٨٩م	الحملة الصليبية الثالثـة	احتلال قبرص وعكا
١٢٠١م	الحملة الصليبية الرابعة الضالة (ضدالمسيحيين)	(نهب القسطنطينـية وإنشـاء كنيسـة وامبراطوريـة لاتينيـة فيهـا)
١٢١٧م	الحملة الصليبية الخامسة	استعادة الصلـيب الحقيقى
١٢٢٨م	الحملة الصليبية السادسة	استعادة أورشليم سلميا بالمفاوضات
١٢٤٨م	الحملة الصليبية السابعـة	أسر الملك لويس التاسع فى المنصورة
١٢٧٠م	الحملة الصليبية الثامنـة	موت الملك لويس التاسع أمام تونس

المصدر: قاموس الأديان الكبرى الثلاثـة اليهوديـة والمسيحية والإسـلام (انجليزى/عربـى ج ١ ص ١٥١) ـ من وضع المؤلف .

٣ – الإجتياح المغولى والتحالف مع الصليبيين ضد الإسلام :

تزامن مع الخطر الصليبى خطر آخر تهدد العالم الإسلامى ، جاء هذه المرة من الشرق من وراء النهر وأقاصى آسيا ، ألا وهو الخطر المغولى بقيادة جنكيزخان الرهيب الذى كان قد قهرالصين بالفعل ، وانطلق غربا يحرق ويدمر. وفى سنة ١٢٢٠م استولى المغول على سمرقند وبخارى ، وفى منتصف القرن كانوا قد استولوا على روسيا ووسط أوروبا وشمال إيران والقوقاز، وفى ١٢٥٨م غزوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد بقيادة هولاكو وأنهوا بقايا الإمبراطورية العباسية التى كانت فى قمة روعتها .

وأسفرالإجتياح المغولى عن اضمحلال الشرق العربى الإسلامى اضمحلالا شديدا . إذ قتل المغول أعدادا غفيرة من الدارسين والعلماء ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال لاتُعوض ، فانمحى الكثير من التراث الثقافى والعلمى والتكنولوجى الذى لا يقدّر بثمن مما كان يحتفظ به الدارسون المسلمون ويضيفون إليه طوال ما يقرب من خمسمائة سنة .

وانطلق المغول من العراق غربا إلى داخل سوريا ثم يمموا وجههم شطر مصر. وللمرة الأولى يجابه المغول عدوا يرفض الخضوع لقوتهم الهائلة ، ألا وهم المماليك الذين تصدوا للمغول بقوتهم العسكرية والمعنوية الجبارة . ولأول مرة يتجرع المغول كأس الهزيمة في معركة مفتوحة عام ١٢٦٠م ، بعد أن استطاع المماليك تعبئة قواتهم فى الوقت المناسب ، وساروا شرقا حيث درات رحى معركة عين جالوت الشهيرة بالقرب من الناصرة بفلسطين واجتثوا شأفة المغول .

وكان القديس لويس التاسع ملك فرنسا قد جاء إلى مصر واحتل دمياط أثناء أن كان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الشام ، وتقدم لويس التاسع باتجاه المنصورة بجيشه الضخم ميمما وجهه شطر القاهرة .

ولقد تسلطت على الملك لويس التاسع هواجس منعته من التفاوض أو الإتفاق مع هؤلاء المسلمين الكفرة ، لكن تلك الهواجس لم تكن لتنطبق على المغول الوثنيين ، إذ وصل إلى قبرص اثنان من النساطرة فى ديسمبر١٢٤٨م ، أرسلهما القائد المغولى أليغيداي ، حاكم الموصل من قِبَل الخان الأعظم ، وأبرزا رسالة تسهب فى تعاطف المغول مع الميسحية ، الأمر الذى أدخل البهجة على لويس التاسع فأرسل من فوره بعثة من المسيحيين الدومينيكانيين برئاسة أندرو أوف لونيمو وأخيه وهما يتحدثان العربية ، وقد حملت البعثة معها هدايا تتألف من نموذج لكنيسة وبعض الآثار الدينية لمذبحها وغيرذلك ، وقابلت البعثة أليغيداي حاكم الموصل الذى أرسل البعثة إلى منغوليا ، حيث وجدت أن جويوك كبير المغول قد مات وأرملته أوغول تقوم بالوصاية . وقابلت الأرملة البعثة مقابلة كريمة ، غير أنها اعتبرت الهدايا مجرد إتاوة من تابع لسيده . وحالت مشاكل الأسرة المغولية دون إرسال حملة كبيرة الى الغرب ، وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بمجرد خطاب شكر من الأرملة باعتبارها السيد الأعلى لما أبداه تابعها من حرص على خطب ود المغول، وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل عام . وذهل لويس التاسع من هذا الرد ، إلا أنه لم يفقد الأمل فى التوصل الى تحالف مع المغول يوما ما .

لقد هزأ جنكيز خان بالإنسان ، وأقام إمبراطوريته على أشلاء إنسانية ، وثبت دعائم الإمبراطورية بأعمدة البؤس الإنسانى . وكان قد أطلق على نفسه إسم :

(سوط الله المرسل لمعاقبة الإنسانية على آثامها)

وكباقى الشعوب التى وصلها الإسلام أو وصلت إليه ، دخل المغول فى الإسلام جماعات وزرافاتا . وفى باكورة القرن الرابع عشر أعلن غازان خان محمود أن الإسلام دين الدولة ، وظلل الإسلام الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية ، وراح المغول يبنون المساجد والمدارس ويرسلون البعثات الدراسية بكافة أنواعها .

على أن مغول الغرب ، فى فارس وأراضى الرافدين وما حولها ، دأبوا على مناوءة المغول الذين أسلموا فى الشرق ، ولذا استمرت الحروب المغولية مع المماليك فى سوريا ، وحاربهم بيبرس في تسع معارك . ثم حاربهم المماليك تباعا بعد بيبرس إلى أن قضوا عليهم قضاء تامـــا .

وسرعان ما تمكن المماليك من دحر الصليبيــين عندما استولى الأشرف خليل على عكا سنة ١٢٩٠م وبذا لم يبق فى الشرق العربي الإسلامى جندي صليبي واحد .

وعلى ذلك ، كان لدولة المماليك دورا جوهريا فى تاريخ الإسلام ، ولولاهم لخضع العالم الإسلامى كلــه من أقصى شرق آسيا وحتى المحيط الأطلنطى غربا لأعداء الإسلام المتربصين به من شاكلة القديس الملك لويس التاسع وهولاكو ومسيحيو الشرق النساطرة وغيرهم .

وكان الأحرى بالدول الإسلامية ، خاصة البلدان العربية ، وبالأخص مصر، أن تنشئ قسما متخصصا لدراسة التاريخ المملوكي بالجامعات أو المعاهد العلمية ، بل ينبغى قبل ذلك الحرص على إدراج التاريخ المملوكى المبسّط لتلاميذ المدارس الثانوية .

رجب ١٤٢٦ هـ / أغسطس ٢٠٠٥م　　　　نورالدين خليــل



الفصل الأول

هل كان المماليك عبيدا ؟

* أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

* ثانيا : نظرات فى ظاهرة المماليك

♣♣♣♣♣

١٧

العبوديـــة



ألست إنسانا وأخـــا !

١٩

أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

١ ـ نشأة الإسترقاق

٢ ـ مصر القديمـة

٣ ـ قانون حمورابى

٤ ـ الصين

٥ ـ الهنـد

٦ ـ كوريـا

٧ ـ الهند الصينية

٨ ـ الفلبين ونيبال والملايو واليابان

٩ ـ تايلاند وبورمـا

١٠ـ انجلـترا

١١ـ بلدان الشمـال الإسكندنافيـة

١٢ـ بلدان القـارة الأوروبيـة

١٣ ـ أمريكا الشمالية

١٤ ـ الدنيا الجديدة (أمريكا)

١٥ ـ الديانة اليهوديـة

١٦ ـ الديانة المسيحية

١٧ ـ الإسـلام

ثانيـا : نظرات فى ظاهرة المماليك

١ ـ مصير العبودية

٢ ـ النخاسـة

٣ ـ هل كان المماليك عبيدا

٤ ـ ظاهرة فريدة فى التاريخ



أولا : العبودية فى مسيرة الإنسان

١ - نشـأة الإسترقاق:

جـاء فى دائرة المعارف البريطانية :

" لا تعى الذاكرة الإنسانية متى نشـأت العبوديـة ومـا هـو أصـلها ، وكل مـا يقـال عن بـداياتها إنمـا هـو ضـرب مـن التخيـل ، فيفتـرض الإنسـان أحيانـا أن الإسـترقاق قـد تقـرر فـى وقـت مـا فـى الماضـى السـحيق ، وأن الأجـدى تشـغيل الأشـخاص المعتقلين بسـبب جـرائم ارتكبوها أو نتيجة وقوعهم فى الأسر أثناء المعارك الحربيـة فـى أي عمل بدلا من قتلهم أو نبذهم أو أكلهم . على أنـه من غير المعروف ما إذا كان ذلك قد حدث فعلا ومتى . "

٢ - مصر القديمـة :

وعلى الرغم من ذلك يرد فى الموسوعة المذكورة ما يلى :

"وتواجد العبيد فى مصر القديمة ، ويُعرف أنهم كانوا يقتلون ليصـاحبوا مالكيهم إلى الحياة الآخرة . وكان الظن أن العبيد هم بنـاة الأهرامات ، غير أن ما كشفت عنه الدراسات العلمية المعاصرة أن الفلاحين هم الذين شيدوا الأهرامات فى الأوقات التى لم تشغلهم فيها الزراعة ."

ولا يرد فى تواريخ الفراعين المكتوبة أوالمحفورة وجود عبيد أو أسواق لبيع العبيد فى المجتمع المصرى القديم ، كما لا يرد ذكر عن قتلهم لمصاحبة مالكيهم إلى الحياة الآخرة ، إذ لم يعثر على موميات عبيد محنطين فيما كشفت عنه الآثار . وإنما كشفت الآثار عن موميات للفراعين والنبلاء وأفراد عائلاتهم ، حتى الأطفال ، ولم يعثر على موميات لأفراد الشعب العاديين ، فضلا عن العبيد . وما جاء فى الموسوعة المذكورة محض خيال ، تماما كما (ظن) كاتب نفس الفقرة بأن العبيد هم بنـــاة الأهرامات . ولقد لوحظ على هذه الموسوعة الشهيرة الرائدة بعض الإنحياز فى طبعاتها الحديثة . وعلى سبيل المثل ، يرد فى الطبعة الرابعة عشرة من الموسوعة ترجمة موضوعية وصادقة عن جمال الدين ا لأفغانى ، كباعث للإسلام فى الشرق . وفى ا لطبعة الخامسة عشرة يجد القارئ جمال الدين الأفغانى وقد تحول إلى رجل سياســة ضالع فى دسائس السفارات بين اسطنبول ودمشق والقاهرة وغيرها من العواصم الإسلامية . وهناك أمثلة أخرى كثيرة ليست هذه الصفحات مجالا لها .

٣ - قانون حامورابى : (١٧٥٠ ق . م .)

كانت ظاهرة العبيد مؤسسة بارزة فى قانون حامورابى البابلى الذى عاش فى حوالى سنة ١٧٥٠ ق . م . وفيما يلى خمسة مواد تتعلق بالعبيد فى ذلك القانون :

١٥ ـ يعاقب بعقوبة الإعدام كل من يأخذ عبدا أو أمة من البلاط، أو من أحد الأحرار ، إلى خارج بوابات المدينة .

١٦ ـ يعاقب بعقوبة الإعدام صاحب البيت الذي يأوي فى بيته عبدا هاربا أو أمة هاربة من البلاط أو من أحد الأحرار ، ولا يُحضر العبد أو الأمــة إلى سلطة الإدعاء العام .

١٧ ـ إذا عثر شخص ما على عبد هارب أو أمة هاربة فى أنحاء البلد ، ويحضرهما إلى سيدهما ، يدفع مالك العبد أو الأمة لذلك الشخص قطعتي شيكل من الفضة .

١٨ ـ وإذا رفض العبد الإفصاح عن إسم سيده ، يقوم الشخص الذي عثر عليه بإحضاره إلى القصر ؛ ويجرى مزيد من التحقيق ، ويُعاد العبد إلى سيده .

١٩ ـ وإذا احتفظ ذلك الشخص بالعبد أو الأمة فى بيته ، وضُبِطا فى المنزل ، يعاقب ذلك الشخص بعقوبة الإعدام .

٢٠ ـ وإذا هرب منه العبد الذي وجده ، يقسم ذلك ا لشخص لمالك العبد ، وتبرّأ ساحته .

المصدر: المرجع المصدري للتاريخ القديم ، قانون حامورابى (حوالى ١٧٨٠ ق.م.)
ترجم النص إلى الإنجليزية ل. ي. كنج L. W. King (ترجمه المؤلف إلى العربية)
***Ancient History Sourcebook*, HAMMURABI'S CODE OF LAWS**
(Circa 1780 BC) Translated by L. W. King.

٤ - الصين : أسرة شانج الحاكمة (القرون ١٨ ـ ١٢ ق . م.)

من واقع الدراسات التى أجريت فى مجتمعات الصين القديمة يتضح أن الإسترقاق كان موجودا منذ عصور قديمة تصل إلى أسرة شانج الصينية الحاكمة من القرن الثامن عشر إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، حيث كان الرقيق يمثلون خمسة فى المائة من السكان . وظل الإسترقاق يشكل سمة من سمات المجتمع الصينى حتى القرن العشرين. وطوال تلك الفترة تقريبا كان الرقيق يتواجدون بنفس الطريقة التى يتواجدون بها فى أي مكان آخر ، بما في ذلك الأسر فى الحروب ، والإغارة ، وبيع المدينين العاجزين عن الدفع ، وبيع النساء والأطفال (لتسديد الديون أو من إملاق البائعين) ، وبيع أقارب المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام . وأخيرا يبدو أن الإختطاف كان يسفر أحيانا عن تدفق منتظم للأرقاء . وكانت الوساطة من السمات الهامة فى بيع الأفراد وتحويلهم إلى أرقاء ؛ ذلك أن الوسيط كان هو الذي يعمل على إبعاد هؤلاء الأفراد عن موطنهم فيصبحوا بذلك أغرابا ، ومن ثم لا يعلم المشترى شيئا عن اصلهم على أن الأسر الصينية كانت تُخترق أحيانا ، وأقام بعض مالكى الرقيق نوعا من

صلة القرابة مع عبيـدهم ؛ فكان بعض مالكى الرقيق يورثـون ذكورالرقيق فى حالة عدم وجود ذرية من الورثـــة . وهناك أسباب كثيرة ومعقدة حالت دون تحول الصين إلى مجتمع يمتلك الرقيق ، على أنه يقينـا كان توفر العمال زهيدي الأجر من غير الرقيق احد تلك الأسبـاب.

٥ - الهنـد : (القرن الأول قبل الميلاد)

تسجل قوانين مانو السنسكريتيـة فى القرن الأول قبل الميلاد تواجد الرقيق فى الهند القديمة ، ولم تكن هناك من وثائق لذلك الإسترقاق سوى القليل ، إلى أن وضـعه المستعمرون البريطانيون موضع الدراسة فى القرن التاسع عشر، مدفوعين برغبتهم فى ألغاء الإسترقاق. وفى سنة ١٨٤١م كان عدد الأرقاء فى الهند يقدر بما بين ٨ و ٩ ملايين عبـد أكثرهم من العبيد الريفيين أو أرقاء الأرض (أي العبيد المرتبطين بالأرض التى يعملون عليها لكنهـم يستطيعون رغم ذلك مغادرتها . وكانت اكبر نسبة من العبيد تتواجد فى ملابار غربي الهند حيث كانت تمثل ١٥% من السكان . وكان العبيد الريفيون أساسا يمثلون مجتمعات مستعبدة ؛ أما باقى العبيد فكانوا يستجلبون فرادي إما بالشراء من الوسطاء أو من الآباء أو بالإسترقاق الذاتى نتيجة الجوع .

٦ - كوريـــا :

كان لدى كوريا عدد كبير جدا من الرقيق يتراوح بين ثلث و نصف عدد السكان فى فى أغلب الفترة الألفيـــة من أسرة سيلا الحاكمة Silla dynasty (٦٦٨ – ٩٣٥م) وحتى منتصف القرن الثامن عشر . وكان أغلب العبيد الكوريين يتوالدون فى أراضيهم الأصلية . وعلى الرغم من أعداد الرقيق الكبيرة يبدو أن تأثيرهم فى المجتمع الكورى كان ضئيلا .

٧ - الهند الصينيـــة :

كان الإسترقاق فى الهند الصينية عملية معقدة بسبب التقاليد التى كانت تسيطر على مالك الرقيق وهى التقاليد التى كانت تحتم معرفة أصل العبيد ، الأمر الذي يفسّـر السبب فى

أن أغلب الرقيق كان من أبناء الوطن الأصليين . وكان المقصود من الرق أساسا إظهار الهيبة والمكانة فيما بين علية القوم والعائلات الكبيرة وإن كانت هناك بعض الإستثناءات .

٨ - الفلبين ونيبال والملايو وإندونيسيا واليابان :

عرفت هذه البلدان ممارسة الإسترقاق منذ العصور القديمة وحتى العصور الحديثة . وتواجدت نفس تلك الممارسات فيما بين شعوب أواسط آسيا : شعوب سوجديانا Sogdiana وخوارزم Khorezm وغيرهما من الحضارات المتقدمة ؛ والمغول والكالميكس Kalmyks والخزك Kazaks ؛ والغديد من الشعوب التركية التى تحول أغلبها إلى الإسلام .

٩ - تايلاند وبورما:

وكان ا لإسترقاق واسع الإنتشار فى المناطق الآسيوية الأخرى كذلك . ففى بعض مناطق تايلاند وبورما كان ثلث السكان من العبيد فى القرون السابع عشر وحتى التاسع عشر ، وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على التوالى . على أنه ليس هناك ما يكفى من المعلومات بحيث يمكن القول بأن تلك المجتمعات كانت مجتمعات استعبادية .

١٠ – انجلترا:

قام وليم الأول الغازي فى سنة ١٠٨٦م بإجراء مسح لإنجلترا يطلق عليه "كتاب يوم الحساب، Domesday Book"، ضم نسبة ١٠% من السكان على أنهم أرقاء ، وكانت هذه النسبة ترتفع إلى ٢٠% في بعض الأماكن .

١١ - بلدان الشمال الإسكندنافية:

كان الرق بارزا خلال حقبة الفايكنج Viking (٨٠٠/١٠٥٠م) عندما كان العبيد الذين يستخدمون فى الداخل وأولئك الذين يباعون فى أسواق الرقيق العالمية هدفا رئيسيا للإغارة . كما كان العبيد متواجدين بأعداد كبيرة فى البلدان الإسكندنافية قبل وبعد حقبة الفايكنج .

١٢ - بلدان القارة الأوروبية :

كان الرق موجودا فى فرنسا وألمانيا وبولندا وليثوانيا وروسيا . فكانت روسيا أساسا تمثل عاملا مساعدا لغارات الفيكينج من أجل الرقيق للمرور من اسكندنافيا إلى بيزنطة فى القرن التاسع ، وبقي الإسترقاق يمثل مؤسسة رئيسية هناك حتى بدايات عشرينات القرن الثامن عشر (١٧٢٠م) ، عندما حولت الدولة عبيد المنزل إلى أجراء المنزل كي تضعهم فى قوائم دافعى الضرائب . وفى عام ١٨٦١م أصدر القيصر ألكسندر الثانى مرسوما بتحرير العبيد من مالكيهم . ويجادل الكثير من الدارسين قائلين إن السوفيات أسسوا نوعا من عبيد الدولة فى معسكرات جولاق Gulag التى ازدهرت حتى عام ١٩٥٦م .

١٣ - أمريكا الشمالية :

وهناك فى أراضى الدنيا الجديدة بعض أفضل الوثائق عن المجتمعات الإستعبادية وهى كلامات وبوني ومجتمعات الصيد مثل يوروك ، وهى المجتمعات التى كانت تعيش بطول الساحل الغربى من ألاسكا وحتى كاليفورنيا . وكانت الحياة يسيرة فى تلك المجتمعات .

١٤ - الدنيا الجديدة (أمريكا):

هناك بعض المجتمعات الإستعبادية موثقة توثيقا كاملا ، وهى مجتمعات كلامات Klamath وبونى Pawnee ، ومجتمعات صيد الأسماك مثل اليوروك Yurok ، وهى المجتمعات التى كانت تعيش بطول الساحل مما يعرف الآن بألاسكا وحتى كاليفورنيا .

وقد انخرط الأرقاء فى الرق من خلال بيع أنفسهم والإعتقال ، وكان بإمكانهم شراء حريتهم على نحو يسير نسبيا . ودائما ما كان الأرقاء يعملون كحمّالين فى غيبة حيوانات الجر. وأما مصير الأرقاء الآخرين فكان أسوأ: إذ كان بعضهم يشترون من قبائل المايا ، ويلقى الأخرون حتفهم بأعداد كبيرة . فكانت الصفوة الإجتماعية تأكل بعضهم .

١٥ - الديانة اليهودية:

تشتمل الشريعة الموسوية على الكثير من النصوص المتعلقة بوضع العبيد كنظام مستقر ومعترف به ، وفيما يلى بعض نصوص أسفار العهد القديم ، أي التوراة :

"فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام . وليكن كنعان عبدا لهم .ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام . وليكن كنعان عبدا لهم " (سفر التكوين ٩ : ٢٥ ـ ٢٧)

"... فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن" (سفر التكوين ٢٠ : ١٧)

"أعَبْد إسرائيل أو مولود البيت هو. لماذا صار غنيمة" (سفرإرْميا ٢ : ١٤)

١٦ - الديانة المسيحية:

لم يرد أي ذكر فى أي مكان من العهد الجديد يمنع الرق . وإنما سارت الديانة المسيحية على نهج اليهودية فأباحت الرق ولم تحرمه وأمرت العبيد بالطاعة لأسيادهم كما يطيعون المسيح . وجاء فى العهد الجديد من الكتاب المقدس :

"أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح" (الرسالة إلى أهل افسس ٦: ٥)

غير أن العهد الجديد يغرس فى الأذهان من المبادئ ما يثبت أن الهلاك مصير أية مؤسسة تقوم على أساس افتراض نقص ما فى الفرد أو فى الحقوق الإجتماعية .

١٦ - الإســــــلام :

الإسلام هو النظام الدينى الوحيد الذي لـم يـبح الـرق ، وتـنص شريعتـه على أن العتق كفـارة للذنوب ، وتنص قلبا وقالبـا على الكثيـر من المنافذ التى تؤدى إلى التخلص من هذه الظاهرة القديمـة . وورد عتـق الرقيق أو (تحرير الرقبة) أو (فك الرقبة) فى القرآن الكـريم فـى أربـع كفارات : القتل الخطأ ، واليمين الكاذب ، والظـهار ، ثم تتويجا للسعى فى الحياة على إجمالها :

١- "ومن قتل مؤمنا خطأ فتـحريررقبة مؤمنة ..." (النساء) (٤ : ٩٢)

٢- "لاَ يؤَاخذكم الله باللّغو فى أيمانكم ولكن يؤَاخذكم بِما عقـدتّم الأيمـان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهلـيكم أو كسـوتهم أو تحرير رقبة ..." (المائدة) (٥ : ٨٩)

٣ – "والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ..." (المجادلة) (٥٨ : ٣)

٤ – " فلا اقتحم العقبـة * وما أدراك ما العقبـة * فـك رقبـة * أو إطعـام فى يـوم ذى مسغبة ... " (الشمس)(٩٠ : ١١– ١٤)



ثانيــا : نظرات فى ظاهرة المماليك

١ - مصير العبودية :

من العجالة السابقة نعلم أن العبودية كانت تشكل ركنا أساسيا فى الحياة الإنسانية منذ فجر التاريخ وفى أرجاء العالم المعروف كله ، أو جُـلّـه . ولم يفكر أحد بطريقة مناهضة للعبودية ، وإنما كان هناك بلا شك متعاطفون مع ضحايا العبودية من بنى الإنسان ، إلا أن ذلك التعاطف لم يخرج عن دائرة التخيل . ولم تطرأ فكرة تحرير العبيد فى أذهان الفلاسفة القدامى من ذوى العقول الجبارة ، ولا فكرت الحضارات القديمة ولا جَرُأت على المنـاداة بتحرير العبيد . ويبدو أن العقل الإنسانى كان ما يزال فى مرحلة طفولتــه ، فلا يكاد يفقه قولا ، ولا يحسن فعلا ، وإنما خيّـم القصور عليـه ، واستمرأ السطوة والغلبــة وما إلى ذلك من مشاعر خادعـة تخلو من الرحمة والإنسانية .

ثم جاء الإسلام ، فى هذا البحر الصاخب بأسواق الرقيق ، فكان رحمة من الله سبحانه وتعالى أن عالج تلك المأســاة بالحكمة والتأنى . فحض على تحرير الأرقاء كما مر بنا ، بل وجعل فك الرقبة كفــارة للذنوب ، وطريقا للحياة .

وفضلا عن ذلك ، حرر الأَمَــة بطفلها الذي تلده . فالإنسان فى الإسلام يولد حراً ، ولا بد لمن تتعهده بالرعاية والتربية الإسلامية من أن تكون حرة هى الأخرى . وذلك منفذ آخر هام لتصفية الرق بطريقة تتصف بالحكمة والسلاسة . وساوى بين الناس على اختلاف ألوانهم ومراكزهم الإجتماعية : "لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى" . وسرعان ما انكمشت العبودية واختفت أسواق الرقيق شيئـا فشيـئا من كل أرض ظللها الإسلام ، إلى أن اختفت نـهائيا بلا رجعــة .

حقــا بعث الله سبحانه وتعالى نبى الإسلام بالإسلام رحمـــة للناس :

"وما أرسلناك إلا رحمـة للعالمين" (سورة الأنبيـاء) (٢١ : ١٠٧)

٢ - النخــاسة :

يقول ابن منظور فى لسان العرب : نخس ، الدابة وغيرها ينْـخُـسُـها وينْـخَـسُها ... نخساً : غرز جنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه ، وهو النخس . والنخّاس : بائع الدواب ، سمى بذلك لنخْـسِـه إياها حتى تنشط ، وحرفتـه النـّخاسـة أو النـّخاسة ، وقد يسمى بائع الرقيق نخّـاساً ، والأول هو الأصل .

وفى معجم الأساس للزمخشرى ، وكذلك فى القاموس ، ترد كلمة نخاسـه بمعنى الإبعـاد . ونخس بالرجل أو أنخس به : أثاره أو أزعجه . وأنخس به ، أي أبعده . وعلى ذلك فالنخاســة هى الإبعـاد .

وانتشرت النخاسة فى العالم الإسلامى من القرن التاسع الميلادى ، عندما كان النخاسون يختطفون الأطفال من عائلاتهم ، أو الأيتام الذين قُتل آباؤهم فى الحروب، وفى بعض الأحيان القليلة يتركهم الوالدان من إملاق، إذا كان الفقر شديدا وبالحياة خصاصة وعَوَزْ . وكان النخاسون يجمعون الأطفال من بلاد القوقاز أو التركستان أو غيرها كى يصبحوا جنودا مملوكين لمن اشتراهم .

٣ ـ هل كان المماليــك عبيــدا:

يفصّل الأستاذ أحمد تمام بأسلوب شيّق نشأة المماليك فى مقال بعنوان (قيام دولة المماليك فى مصر والشام) نشر فى موقع (إسلام أون لاين) بالشبكة الدولية بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٤٢٦هـ / ٢٨ أغسطس ٢٠٠٥م ، فى ذكرى وفاة أيبك يوم ٢٤ ربيع أول سنة ٦٥٥ هـ .

واللافت للنظر أن المقال يدحض ما لصق بالمماليك من عبودية ، ويؤكد أنهم أحرار منذ ولادتهم وحتى بعد انتقالهم إلى مصر غيرها من الأصقاع الإسلامية . واستكمالا لفائدة القارئ ، نورد هذا المقال فيما يلى :

"يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل دولتهم في مصر والشام بأمد بعيد؛ إذ استخدمهم الخلفاء العباسيون الأوائل، واعتمدوا عليهم في توطيد دولتهم، واستعانوا بهم في الجيش والإدارة، ولعل الخليفة المأمون العباسى (١٩٨- ٢١٨هـ = ٨١٣-٨٣٣ م) هو أول من استعان بهم ، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ = ٨٣٣-٨٤٣ م)، وشكل فرقا عسكرية من الأتراك، وكان يُعنى بشرائهم صغارا ويستجلبهم من سمرقند وفرغانة والسند، وغيرها من أقاليم ما وراء النهر، حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفا، فلمّا ضاقت بهم بغداد، وزاحموا الناس في الطرقات نقلهم المعتصم معه إلى "سامراء" عاصمته الجديدة التي بناها لتكون حاضرة لملكه.

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أجزاء العالم الإسلامي، وكانت مصر ممن انتهجت هذا النهج، فأكثرأحمد بن طولون الذي تولى حكم مصر سنة ٢٥٤هـ = ٨٦٨ م من شراء المماليك الديالمة، سكان بحر قزوين حتى بلغ عددهم أكثر من ٢٤ ألفا، والتزم الإخشيديون سُنة أسلافهم الطولونيين في جلب المماليك الأتراك والاستعانة بهم في الجيش.

وفي الهند قامت لهم دولة قبل أن تقوم في مصر بعد أن نجح "قطب الدين أيبك" في إنشاء دولة عُرفت باسم دولة "الملوك المماليك"، وظلّت دولتهم قائمة مدة ٨٤ عاما، بدأت عقب سقوط الدولة الغورية سنة ٦٠٢هـ = ٦٨٩م .

٣١

الصالح أيوب والمماليك

عُني الصالح أيوب (٦٣٨-٦٤٧هـ = ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م) منذ أن تولى حكم مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك بعد أن ساندوه في توطيد سلطانه، حتى صار معظم جيشه منهم، وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة "الروضة" في وسط النيل وأسكنهم بها، وجعلها مقرا لحكمه، وعُرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك "البحرية الصالحية".

وقد برز هؤلاء المماليك البحرية وتعاظم شأنهم في خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة التي مُنيت بهزيمة بالغة سنة ٦٤٨هـ = ١٢٥٠م، وانتهت بأسر الملك لويس التاسع قائد الحملة في المنصورة، وتبدد قواته بين القتل والأسر.

نهاية الدولة الأيوبية

تُوفي الصالح أيوب في أثناء المعركة وخلفه ابنه توران شاه في حكم مصر، لكنه لم يحسن معاملة المماليك البحرية، الذين كان لهم الفضل الأكبر في تحقيق النصر، وحسدهم على مكانتهم التي بلغوها بفضل شجاعتهم وقوة بأسهم، وخشي من نفوذهم فأعرض عنهم، وأوجس منهم خيفة وأضمر لهم السوء، غير أنه لخفته ولهوجته كان يجاهر بذلك عند سكره بالليل فينفلت لسانه بما يضمره قلبه من قتلهم والتخلص منهم.

يُضاف إلى ذلك سوء تدبيره وفساد سياسته بإبعاده كبار رجال دولته من الأمراء وأهل الحل والعقد، وتقريبه رجاله وحاشيته وإغداقه

عليهم بالأموال والإقطاعات ولم يكن أمام المماليك سوى التخلص من توران شاه قبل أن يتخلص هو منهم، فنجحوا في قتله في فارسكور في صباح يوم الإثنين الموافق (٢٨ من المحرم ٦٤٨هـ = ٢من مايو ١٢٥٠م)، وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية فى مصر وبدأ عصر جديد.

قيام دولة المماليك

وجد المماليك أنفسهم أمام وضع جديد لم يعهدوه من قبل، فهم اليوم أصحاب الكلمة النافذة والتأثير البالغ، ولم يعودوا أداة في أيدي من يستخدمهم لمصلحته وتحقيق هدفه، وعليهم أن يختاروا من بينهم سلطانا جديدا للبلاد، فاتفقت كلمتهم على اختيار أرملة أستاذهم شجرة الدرسلطانة للبلاد، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي إلا نادرا، وبايعوها بالسلطنة في (٢ من صفر ٦٤٨هـ = ٥ مايو ١٢٥٠م).

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر شجرة الدر في الحكم، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شئون الدولة، فلقيت معارضة شديدة في داخل البلاد وخارجها، وثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه وجلوس شجرة الدر على سدة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تُقر صنيع المماليك، فكتب الخليفة إليهم: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلا".

٣٣

تنازل شجرة الدر وولاية عز الدين أيبك

لم تجد شجرة الدر بُدا من أن تتنازل عن الحكم للأمير "عز الدين أيبك" أتابك العسكر الذي تزوجته وتلقب بالملك المعز، وكانت المدة التي قضتها شجرة الدر على عرش البلاد ٨٠ يوما، ولم يكن توليها الحكم ناتجا عن موافقة شعبية أو اختيار من الخلافة العباسية، وإنما كان وليد الظروف التى أحاطت بمصر في ذلك الوقت.

تولى الملك المعز عرش البلاد، ولم تهدأ أصوات المعارضين لانفراد المماليك بالحكم، بل زاد حدة، وكان على السلطان الجديد للدولة الوليدة أن يواجه بحزم خطر الأيوبيين في الشام وتهديداتهم، وكانوا قد اجتمعوا تحت زعامة "الناصر يوسف" صاحب حلب ودمشق لاسترداد مصر من المماليك، باعتبارهم مغتصبين حق الأيوبيين في حكم مصر، وزحفوا على مصر فالتقى معهم أيبك بقواته في معركة بالقرب من الصالحية في (١٠ من ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ = ٢ من فبراير ١٢٥١م)، وانتهت بانتصاره وفرار الناصر يوسف ورجاله إلى الشام.

وقد دفع هذا النصر الملك المعز إلى الزحف إلى الشام للقضاء على المعارضة الأيوبية، غير أن تدخل الخليفة المعتصم العباسي وضع حدًا للنزاع بين الطرفين؛ فتم الصلح بينهما سنة ٦٥١هـ = ١٢٥٣م على أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، على حين تظل البلاد الشامية في أيدى الأيوبيين، وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس

الدولـة المملوكيـة الناشـئة بإيقـاف النـزاع والصـراع مـع ملـوك البيـت الأيوبي

عقبات في طريق قيام دولة المماليك

ولم يكد السلطان أيبك يتخلص من هذه العقبة حتى واجهته عدة مشكلات داخليـة، بـدأت بقيـام الأعـراب بثـورة شـعبية فـي الصـعيد والشرقية تحت زعامـة "حصـن الدين ثعلب"، هددت البلاد؛ فاضـطر السلطان إلى أن يرسل حملة عسكرية بقيادة "فارس الدين أقطاي" لقمع هذه الثورة في مهدها؛ فنجح في القضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها

أما العقبة الثانية التي واجهت أيبك في الداخل فهي ازدياد نفوذ المماليك البحرية بزعامـة "فـارس الدين أقطـاي"، خاصـة بعد نجاحهم في تحقيق انتصارات داخلية وخارجية، فهدد نفوذهم مكانـة السلطان، واشتد خطرهم حتى أصبح يهدد أمن الناس وسلامتهم، وعجز السلطان عن مواجهتهم والتصدي لاستخفافهم بـه؛ فكـان "أقطـاي" لا يظهـر فـي مكـان إلا وحولـه رجالـه ومماليكـه فـي أبهـة عظميـة كأنـه ملـك متـوج، وبـالغ فـي تحقيره للسلطان فـي مجلسـه فلا يسـميه إلا أيبكـا، وتطلعت نفسه نحو السلطنة، ولقبه زملاؤه بالملك الجواد

استشـعر السـلطان الخطـر وأحـس بـالخوف مـن ازديـاد نفـوذ "أقطاي"؛ فعزم على التخلص منه فاستدعاه إلى القلعه بحجة استشـارته في أمر من أمور الدولة، وهناك تخلص منه بالقتل فـي (٣ مـن شـعبان ٦٥٢هـ = ١٨ مـن سبتمبر ١٢٥٤م)، وألقـى هذا الحـادث الرعـب فـي قلوب كبار المماليك البحريـة فسارعوا بـالهرب الى خارج البلاد، والتجا

بعضهم إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام، ولجأ بعضهم الآخر إلى دولة سلاجقة الروم، وتعقب أيبك من بقي منهم في مصر فقبض عليهم، وكتب إلى الملوك الذين لجأ إليهم المماليك يحذرهم منهم ومن غدرهم.

نهاية السلطان أيبك

أسلمت البلاد قيادها للمعز، وتخلص من القوى المناوئة له، وكان من المنتظر أن تنعم البلاد بالهدوء بعد الفوضى والقتال، وينعم هو بزعامة بلد له شأن، ولكن ذلك لم يدم، ودخل في صراع مع زوجته شجرة الدر زاد من ضراوته عزمه على الزواج من إحدى بنات البيت الأيوبي، وبدأ يفكر في الخلاص منها، غير أنها كانت أسبق منه، فدبرت مؤامرة لقتله في (٢٤ من ربيع الأول ٦٥٥هـ = ١١ من إبريل ١٢٥٧م)، ثم لم تلبث هي الأخرى أن قُتِلت بعده بأيام قليلة.

وبعد مقتله تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو "نور الدين علي" بن أيبك، وكان في الخامسة عشرة من عمره، وأقاموه سلطانا على البلاد، ولمّا تعرض الشرق الإسلامي لخطر المغول الذي اجتاح الشام وأصبحت مصر على مقربة من هذا الخطر، قام قطز نائب السلطنة بعزل السلطان الصغير، وتولى الحكم لمواجهة الخطر المغولي الداهم، وخرج إلى ملاقاة المغول في عين جالوت وحقق نصرا تاريخيا في (٢٦ من رمضان ٦٥٨هـ = ٣ من سبتمبر ١٢٦٠م)، وطرد المغول من المنطقة، وضمَّ الشام إلى سلطان المماليك الذين أصبحوا سادة الموقف، ومن بيدهم مقاليد الأمور في مصر والشام "

وفـي مقـال كتبـه بـرزج أمـين سـمكوغ ، منشـور على موقـع الشـبكة الدولـة لجمعيـة الشراكسة الخيرية Circassian Benevolent Association بعنوان "استكثر الغرب على العرب والمسلمين أن يعدوا الجيوش لمقاومة الإحتلال"، يتأكد درء صفة العبودية عن المماليك

١ - ظاهرة فريدة فى التاريخ

هي ظاهرة اجتماعية وعسكرية وسياسية وحضارية إسلامية فريدة، كان لها أسبابها العميقة، بدأت بالظهور في المشرق العربي منذ أواخر الدولة العباسية، وتوضحت في منتصف القرن الثاني عشر، واستمرت قرابة ثلاث قرون، وكانت حالة غير مسبوقة في تأريخ العالم .

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين عظيمين في تلك العصور، وهما خطر الحملات الصليبية الاستيطانية التي احتلت بيت المقدس واستقرت على سواحل بلاد الشام، منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وخطر اجتياح المغول والتتار الذي أرهب العالم بأسره ، ونجم عنه احتلال هولاكو لبغداد، وقضاؤه على الخلافة العباسية فيها، ثم استمرار غزواتهم لبلاد الشام على فترات متقطعة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

لقد شعر المشرق العربي وهو قلب العالم الإسلامي، نتيجة لذلك بالحاجة إلى النصرة والمعونة لمواجهة هذه الأخطار العظيمة، فكان أن لبت شعوب الإسلام في الأطراف ، وكان النظام المملوكي والجيش المملوكي الوسيلة الفعالة التي أدت إلى تجاوز المحن.

هذه الاجتياحات الخطيرة التي داهمت المشرق العربي، من الشرق والغرب والتي كانت السبب والمبرر لهذه الظاهرة الفريدة من

نوعها، ولم تقتصر الاجتياحات على المشرق العربي بل سارت في كل الاتجاهات وشملت كل بقاع العالم المعروف آنذاك في أوراسيا، وكانت قد بدأت بظهور جنكيز خان، الذي احتل أواسط آسيا وجزءاً من الصين وبلاد إيران، والقفقاس وجنوب روسيا، ثم قسّم البلاد التي فتحها بين أولاده قبل وفاته العام ١٢٢٧ م ٦٢٤ هجرية.

إن ما يهمنا في هذا البحث هو الجزء الغربي من شمال القفقاس (بلاد الشركس)، التي دخلت في حصة جوجي ابن جنكيز خان، والتي شملت كل مناطق السهوب جنوب روسيا أمام شمال القفقاس، وقد دعيت دولته بالقبيلة الذهبية، أو دولة التن أوردو وعاصمتها ساراي العام ١٢٣٠ م، ومن بعده تولى ابنه بركا الذي دخل الإسلام، وصار يتعاون مع دولة المماليك في مصر، من منطلق إسلامي، ضد عدوهما المشترك المغول من أبناء عمومته (أولاد تولّوي : منكو ثم هولاكو وابنه أباقا)، وهم حكام إيران، وكان يريد الانتقام منهم لمقتل الخليفة العباسي على يدي هولاكو.

كانت الحروب والاجتياحات من قبل هذه الأقوام الرحل ، فقد دمرت الكثير من دول العالم وحواضره، واتسمت بالقسوة والعنف والهمجية، ولم ينج القفقاس من شرورها، فقد كثرت عصاباتهم وخاصة في شمال القفقاس وعملت على مداهمة المدن والقرى للسلب والنهب، وكان منها الحصول على أسرى من السكان وخاصة الأطفال لبيعهم في أسواق النخاسة.

إن أول ذكر لهؤلاء المماليك يعود إلى أواخر الدولة العباسية استعانت بهم الدولة، للقضاء على طبقة العبيد التي كثرت في بغداد واستفحل أمرها وكثر نفوذها .

كما عملت الدول العسكرية التي قامت في المشرق العربي كنتيجة ورد على الأخطار المحدقة، على الإكثار منهم والاعتماد عليهم، لحاجتها الماسة إلى جنود محترفين يمتهنون القتال، وليتمكنوا من صد تلك الأخطار التي كانت تهدد البلاد، وعمل سلاطين الأيوبيين من بعدهم على الإكثار منهم في جيوشهم.

بالنسبة للعنصر الشركسي، فإن أول ذكر لهم يأتينا منذ زمن صلاح الدين الأيوبي الذي استخدمهم في جيوشه، لأن الأيوبيين قبائل كردية كانت مقيمة في (دوين) قرب تفليس في القفقاس الجنوبي، وعلى معرفة تامة بالقفقاسيين، ومقدرتهم القتالية، لذلك كان قائدا الفرقتين الصلاحيتين في معركة حطين من الشركس، وهما : (فخر الدين اباظه، وإياز خوج).

وفي زمن قلاوون وأولاده استكثروا من الشراكسة، وكان يرسل الرسل لاستقدامهم، وبلغ تعدادهم في زمن ابنه الخليل ٣٧٠٠ رجلاً، مما مهد لاستمرار قدومهم في الأزمنة اللاحقة حتى استلامهم السلطة زمن السلطان برقوق، وبدء قيام دولة سلاطين الشركس البرجيين، العام ٧٨٤ هجرية ١٣٨٢ ميلادية .

٢- من هم المماليك

كان استقدام المماليك إلى المنطقة، سواء بافتدائهم كأسرى حروب، أو استقدامهم بشكل طبيعي، من شعوب مسلمة عرفت بشجاعتها وفروسيتها وميلها إلى القتال ناجماً عن الحاجة الماسة إليهم، وللنصرة والمعونة، لاستخدامهم جنوداً محترفين ومدربين، لمواجهة الأخطار العظيمة التي كان قلب العالم الإسلامي يواجهها، ولم يعرف عن هؤلاء الرجال أنهم عملوا خدماً في المنازل أو عبيداً في الأرض والزراعة أو في أي أعمال إنتاجية أخرى، مما كان العبيد يجلبون من أجله، وكان قدومهم من بلاد فائقة الغنى والثروة والجمال، لذلك فهم لم يكونوا مرتزقة أيضاً جاؤوا من بلاد فقيرة بدافع الحاجة والعوز، بل كانوا من الأحرار وهم أولاد أسر حرة غير مستعبدة، لم تعرف الرق، وحدث أن دمرت قراهم وقتل أهلهم، فاختطفوا وهم أطفال في تلك الحروب والاجتياحات من قبل أقوام رعوية بربرية همجية، فمسهم الرق رغماً عنهم فترة من الزمن عندما صاروا أسرى حروب، وما يدفع في الأسير من أثمان، لا يكون بقصد الاستعباد، بل هو افتداء له وفكاك لأسره، وخاصة إذا كان من يفتديهم يمت بصلة القربى والجنس لهم، وهذا ما نلحظه عند سلاطين الشراكسة البرجيين الذين كانوا يرسلون الوفود والتجار للبحث دون هوادة عن بني جلدتهم ، لفكاكهم وتخليصهم من الأسر، وجلبهم إلى مصر والإكثار منهم ولو دفعوا في هذا أثماناً باهظة، ولم يكونوا يستخدمونهم عبيداً كما أسلفنا، بل كانوا يدخلونهم الطباق أرقى مدرسة في عصرهم، وهل عرف في تاريخ العالم أن العبيد كانوا يدخلون إلى أرقى المدارس، وذلك بغية تأهيلهم

للمهام الجسام التي تنتظرهم، والمناصب الرفيعة في الجيش والدولة في زمن كثرت فيه الأخطار.

إذن فقد شكل المماليك فئة راقية ومتميزة من فئات المجتمع في ذلك الزمن، تخصصت في أمتهان الثقافة الاسلامية العالية المستوى والفروسية والقتال، للدفاع عن الدين والدولة، ولم تكن هذه الفئة المتعلمة والمعدة والمدربة على الفروسية والقتال فئة للاستعباد كما أراد لها مؤرخوا الغرب أن تكون من منطلق الحقد الأعمى ، وكان من الطبيعي أن يصبح هؤلاء الرجال الطبقة الحاكمة لامتلاكهم مصادر القوة وهي المعرفة والثقافة والتأهيل العسكري العالي المستوى، في دول فرض واقع الحال طابعها العسكري لرد الأخطار المحدقة، بدءاً من قمة الهرم السياسي الذي هو السلطان وحتى أصغر فارس.

٣ - الغرب يستكثر على المسلمين أن يعدوا جيوش المقاومة والتحرير

كان جيش المماليك في ذلك العصر أشبه ما يكون بالقوات الخاصة في الجيوش المعاصرة ، إذ كانوا يحصلون في الطباق على إعداد فكري وعقائدي وجسدي ليكونوا جنوداً من طراز رفيع، وقد عادل الفارس الواحد منهم وقتها أربعة عشر فارساً تتارياً في القتال بحسب تقديرات المؤرخين .

لذلك فالكثير من المؤرخين نفوا عنهم صفة العبودية، وخاصة المؤرخين العرب والمسلمون الذين عاصروهم، هذه الصفة التي ألصقها بهم مؤرخوا الغرب مفسرين كلمة مملوك العربية بالعبد في اللغات الأوربية (ESCLAVES) انتقاماً وتشفياً منهم، لقد استكثر مؤرخوا

الغرب على العالم الإسلامي أن يعد جيشاً مدرباً على القتال قادرعلى قهر الغزاة، لأن هؤلاء المماليك الرجال هم الذين قادوا أهل البلاد، وأنهوا الوجود الصليبي من بلاد الشام، وصدوا غزوات التتار والمغول. ونحن نعتقد أن كلمة مملوك العربية بمفهومها الاجتماعي والسياسي في ذلك الزمن لم يكن يعني العبودية كما رأينا، بل كان يطلق على تلك الطبقة المثقفة التي امتهنت الفروسية والقتال للدفاع عن البلاد، وأن كلمة عبد الأجنبية (ESCLAVE) خطأ مقصود ووقح، وقع فيه المؤرخون الغربيون عن قصد أو غير قصد، والذين لم يتركو نقيصة تخطر على البال إلا وألصقوها بهم، على عادتهم **(يريدون دائماً أن يأكلوا التمر ويرجموا بالنوى)**، وقد روّج أكاذيبهم من نقل عنهم من مؤرخينا المحدثين مع الأسف، بدون تفكير أو تمحيص، وهذا ما لم يكن ينطبق على وضعهم الثقافي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وإنهم كانوا تابعين وموالين وجنودا فرسان لمن افتك أسرهم من منطلق الحمية والوفاء ، أكان ذلك هو السلطان أو الأمراء أو الدولة، ومعظم المال الذي كان يدفع لافتكاكهم إنما هو من بيت مال المسلمين، وإن إعتاقهم ونيلهم حريتهم بعد تخرجهم من المدرسة كان أمراً مفروغاً منه ومعد سلفاً، لذلك كانوا يحافظون على ولائهم وعلى وفائهم للشخص الذي افتك أسرهم وكانوا يتسمون باسمه ، وكان من الطبيعي ومن المحتم أنه عندما يقع قلب العالم العربي الإسلامي تحت التهديد أن الأطراف ستتداعى للدفاع عنه، وأنه سيعد الجيوش القادرة على صد العدوان بالطريقة التي يراها مناسبة له، وهذا ما لم يتمكن المؤرخون الغربيون من إدراكه واستيعابه وهو الشعور بوحدة العالم الإسلامي، لذلك نقول إن حقيقة وضع المماليك الاجتماعي كان التبعية

والموالاة والتعصب للإسلام ولطبقتهم المتخصصة المؤهلة لقيادة المجتمع والدفاع عن الدين والدولة ، وأن كلمة مملوك أو عبد التي استخدمها المؤرخون الغربيون بالمفهوم المعاصر الذي أرادوه للكلمة، لا تنطبق على واقعهم الاجتماعي الحقيقي.

وننهي الفقرة، بذكر وصف أبو حامد المقدسي عن كيفية قدوم بعض البرجيين في كتابه

((دول الإسلام الشريفة)) :

(مولانا السلطان يسمع بأن فلاناً وصل من جركس، فيرسل نائبه إلى حلب لملاقاته، بفرس بسرج من ذهب وكنبوش وكاملية طرش، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً، فما يرى نفسه إلا ملكاً لا مملوكاً).

وقد عاش البرجيون كطبقة من الفرسان، لهم عاداتهم وتقاليدهم التي قد تختلف بشكل أو بآخر عن تقاليد وعادات أهل البلاد، وهو السر في استمرارهم لفترة طويلة.

♣♣♣♣♣

ولقد تواصلت دولة المماليك فى مصر وسوريا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها ٢٦٧ سنة ، تعاقب عليها ما لا يقل عن ٤٥ سلطانا من المماليك ، وأفلح البعض منهم فى إنشاء أسر حاكمة ، أشهرهم السلطان قلاوون الذى حكم فى الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠م ، وحكمت ذريته بفترتى انقطاع حتى سنة ١٣٨٢م ، وتتابع من ذريته على حكم مصر أربعة عشر سلطانا . وبعد الإنتصار المملوكى على المغول فى معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطز، استولى بيبرس الأول على السلطة ، وهو بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، إذ نشط فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ونجح فى القضاء عليهم فى فلسطين وسوريا ، وطارد المغول ، وحكم حتى عام ١٢٧٧م .

ليس هذا وحسب ، وإنما تزامن قيام دولتهم مع أخطر تهديدين تهددا العالم الإسلامى شرقه وغربه : الحملات الصليبية والإعصار المغولى ، كما جاء فى مقدمة هذا الكتاب ، وفى تفصيلات الكتاب الثانى من هذه السلسلة : سيف الدين قطز، قاهر المغول .

ويكفى المماليك شرفا التصدي لهما ودحرهما ، صونا للإسلام وللإنسانية وللحضارة.

ولقد اعتاد المؤرخون على تقسيم التاريخ المملوكى إلى فترتين : يطلقون على مماليك الفترة الأولى المماليك البحرية (١٢٥٠– ١٣٨٢م) ، وعلى مماليك الفترة الثانية المماليك البرجية (١٣٨٢– ١٥١٧م) . وليس هناك من سبب لهذه التسمية إلا أن المماليك البحرية كانوا يقيمون فى جزيرة الروضة فى نهر النيل (أو بحر النيل) ومن هنا جاءت التسمية ، وأما المماليك البرجية فكانوا يقيمون فى برج القلعة بالقاهرة .

♣♣♣♣♣

المماليك البحرية

الجدول (٢) سلاطين المماليك البحرية	فترة السلطنة
٠١- شجرة الدر (سلطانة)	١٢٥٠م
٠٢- أيبك (المعز عزالدين)	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- على بن أيبك (المنصور نورالدين)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- قطز (المظفر سيف الدين)	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهرركن الدين)	١٢٦٠- ١٢٧٧م
٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس)	١٢٧٧- ١٢٧٩م
٠٧- سلامش (العادل بدرالدين بن الظاهربيبرس)	١٢٧٩م
٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين)	١٢٧٩- ١٢٩٠م
٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون)	١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠- الناصر محمد (بن قلاوون)	١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١- العادل كتبغا (العادل زين الدين)	١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين)	١٢٩٦- ١٢٩٩م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية)	١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٣- بيبرس الثانى الجاشكير(المظفرركن الدين)	١٣٠٩- ١٣١٠م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثالثة)	١٣١٠- ١٣٤١م
١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصورسيف الدين)	١٣٤١م
١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين)	١٣٤١- ١٣٤٢م
١٦- أحمد بن الناصر محمد (الناصر شهاب الدين)	١٣٤٢م
١٧- إسماعيل بن الناصرمحمد(الصالح عماد الدين)	١٣٤٢- ١٣٤٥م
١٨- شعبان الأول بن الناصرمحمد (الكامل سيف الدين)	١٣٤٥- ١٣٤٦م
١٩- حاجى الأول بن الناصر محمد	١٣٤٦- ١٣٤٧م
٢٠- الحس بن الناصر محمد (الناصر)	١٣٤٧- ١٣٥١م
٢١- صالح بن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين)	١٣٥١- ١٣٥٤م

الحسن بن الناصر محمد(الناصر) (مرة ثانية)	١٣٥٤-١٣٦١م
٢٢- محمد بن حاجى (المنصور صلاح الدين)	١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٣- شعبان الثانى (الأشرف ناصر الدين)	١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٤- على بن شعبان (المنصور علاء الدين)	١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٥- حاجى الثانى (الصالح صلاح الدين)	١٣٨١- ١٣٨٢م

المماليك البرجيّة

الجدول (٣) سلاطين المماليك البرجية	فترة السلطنة
٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين)	١٣٨٢- ١٣٩٨م
٢٧- فرج بن برقوق (الناصر)	١٣٩٨- ١٤٠٥م
٢٨- عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥م
فرج بن برقوق (مرة ثانية)	١٤٠٥-١٤١٢م
٢٩- الشيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر)	١٤١٢- ١٤٢١م
٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر)	١٤٢١م
٣١- الظاهر ططر	١٤٢١م
٣٢- محمد بن ططر (الصالح)	١٤٢١- ١٤٢٢م
٣٣- برسباى (الأشرف سيف الدين)	١٤٢٢- ١٤٣٨م
٣٤- يوسف بن برسباي (العزيز جمال الدين)	١٤٣٨م
٣٥- جقْمق (الظاهر سيف الدين)	١٤٣٨- ١٤٥٣م
٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين)	١٤٥٣م
٣٧- إينال العلانى (الأشرف سيف الدين)	١٤٥٣- ١٤٦٠م
٣٨- أحمد بن إينال (المؤيد شهاب الدين)	١٤٦٠- ١٤٦١م
٣٩- خشقدم (الظاهر سيف الدين)	١٤٦١- ١٤٦٧م
٤٠- بلباي المؤيدى (الظاهر سيف الدين)	١٤٦٧- ١٤٦٨م
٤١- تمريغا (الظاهر)	١٤٦٨م

٤٢- قـايتبـاي (الأشرف سيف الدين)	١٤٦٨- ١٤٩٥م
٤٣- محمـد بن قايتبـاي (الناصر)	١٤٩٥- ١٤٩٦م
٤٤- قـانصـوه (الظاهر)	١٤٩٧م
محمـد بن قايتـباي (ثانى مرة)	١٤٩٧- ١٤٩٨م
٤٥- قـانصـوه (الأشرفى)	١٤٩٨- ١٥٠٠م
٤٦- جنبلاط (الأشـرف)	١٥٠٠- ١٥٠١م
٤٧- ظومـان باي الأولـ (العادل)	١٥٠١م
٤٨- قانصــوه الغورى	١٥٠١- ١٥١٦م
٤٩- طومان باى الثانـى (الأشرف)	١٥١٧م





دولة المماليك فى مصروسوريا حوالى سنة ١٣٥٠م

الفصل الثانـــى

بيبرس
قبل توليـه السلطـنة

* من هو بيبرس ؟
* صفاته الشخصية
* بطل معركة المنصورة
* البلاء الحسن فى عين جالوت
* حادثة اغتيال قطـز

من هو بيبرس ؟

الظاهر بيبرس هو خامس سلاطين المماليك ، وإن كان بعض المؤرخين ، بل أغلبهم ، يعتبرونه رابع سلاطين المماليك متجاهلين أولهم (شجرة الدر) ، أو متجاهلين ثانيهم (على نورالدين بن أيبك) ذلك الفتى الذي لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره ، الذي رفعه المماليك إلى كرسى السلطنة بعد اغتيال أبيه عز الدين أيبك وتحت وصاية سيف الدين قطز.

وقد استحوذ الظاهر بيبرس على اهتمام كافة المؤرخين شرقا وغربا ، تقديرا وإكبارا من مؤرخى العرب المسلمين وبعض الغربيين المنصفين ، وإجبارا من أغلب المؤرخين الغربيين الذين لا يملكون تجاهل سيرة هذا السلطان العظيم ذي الأيادي الكثيرة والإنجازات العظيمة .

ومن بين الذين أرّخوا لسيرة الظاهر بيبرس فى التراث العربى الإسلامى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهرفى مؤلفه (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) واختصرها شافع بن على فى (المناقب السريّة فى السيرة الظاهرية) . والسيرة الثانية كتبها عزالدين محمد بن على بن شداد فى مؤلفه (تاريخ الملك الظاهر) . وممن أرخ له فى سياق التأريخ العام للدولة الإسلامية : اليونينى (ذيل مرآة الزمان) وأبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر) والنويرى (نهاية الأرب فى فنون الأدب ، والذهبى (تاريخ الإسلام) وابن كثير (البداية والنهاية فى التاريخ) والمقريزي (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) . وهناك من المؤرخين العرب المحدثين من كتب عن الظاهر بيبرس ، منهم من أفرد له أبحاثا مستقلة كمحمد جمال سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، وعبد العزيز خويطر . وكتب عنه آخرون فى دراساتهم العامة .

١٢٢٣م مولـده :

ولد الظاهربيبرس في صحراء الكيبشاك سنة (١٢٢٣م) شمال البحر الأسود ، فهو ينحدر من أصل تركي وفى غارة مغولية على موطنه أسره المغول وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وبيع في أسوق الرقيق بدمشق ، وكان ضخما داكن البشرة ، أزرق العينين له صوت جهوري رنـان . وعندما عرض للبيع ، شاهده أمير حماه وتفحصه ، وظنه جلفا خشنا ، لكن الأمير المملوكى علاء الدين إيدكين الصالحي البُـندقداري لاحظه فى السوق وتوسم فيه الذكاء فاشتراه ، فسمي "بيبرس البندقداري" نسبة إليـه . وانتهى به المقام فى مصر حيث صار مملوكا للملك الصالح نجم الدين أيوب . وتدرب على فنون الحرب والقتال وسرعان ما ظهرت قدراته الحربية الفائقة . ولقد أعتقه نجم الدين أيوب وولاه رئاسة إحدى فرق حرسه الخاصة ، ثم رفعه ليصبح قائدًا لفرقة المماليك لما رأى من شجاعته وفروسيته .

١٢٣٩م أول ظهوره فى التاريخ :

ويظهر بيبرس أول مرة فى التاريخ عام ١٢٣٩م ، وهو فتى فى السادسة عشرة من عمره ، معتقلا مع سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب فى قلعة الأكراد حيث وقع فى قبضة الناصر داود صاحب الكرك الذى تبنى قضية نجم الدين أيوب وأعاره الجنود لغزو مصر . وتدرج بيبرس فى القيادة العسكرية إلى أن علا نجمه وهو يقود الجيش المصرى فى حربه مع قوات الصليبيين . ولقد ظهرت فى معركة المنصورة عبقريتـه العسكرية ، وحول الهزيمة إلى نصر مؤزر ، وانتهى القتال بأسر الملك الفرنسى لويس التاسع ، مما جاء تفصيله فى الكتاب الأول من هذه السلسلـة (شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر) ، وكما سنرى فى الصفحات التالية

صفاته الشخصيـــة

١ - الشجاعة ـــ

أجمعت المراجع كلها على ما كان لبيبرس من شجاعة . فيقول عنه المقريزى فى السلوك ج ١ ص ٦٣٧ "وكان شجاعا عسوفـا عجــولا".

وقال عنه أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ج ٧ ، الصفحتان ١٧٧- ١٧٨ " كان رحمه الله ملكا شجاعا ، مقداما غازيا ، مجاهدا مرابطا ، خليقا بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفســه " .

ويقول عنه الذهبى "والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أياما بيضا فى الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات متعـددة" .

وللشجاعة رجالها ، وهم قليل ، وكان بيبرس من هؤلاء الرجال ، لا يخشى شيئـا ، ولا يرهبه عدو ، حتى وإن كان الجيش الفرنسى الضخم وعلى رأسه الملك وأخوه ، كما سنرى فى معركة المنصورة التى صنع منها بيبرس بطولة ، وأحال الهزيمـة نصرا مؤزرا ، وكما سنرى بلاءه فى معركة عين جالوت التى قلبت موازين المغول بجحافلهم رأسا على عقب .

٢ - الإحســان ـــ

كما كان بيبرس من أهل الإحسان والبر . فيقول عنه المقريزى إنه كان يطعم فى كل ليلة من ليالى رمضان خمسة آلاف نفس ، ويكسو فى كل سنة ستمئة كسوة ، كما خصص وقفاً لدفن الفقراء . وفضلا عن ذلك ، يخبرنا المؤرخ أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٠ أنه كان يتصدق فى كل سنة بعشرة آلاف أردب قمح على الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا ، وأنه رتّب لأيتام الأجناد (يعنى أبناء الشهداء) ما يكفى لمطالبهم فى الحياة برغم كثرتهم ، ووقـف وقفا يُشترى به الخبز ويُفرّق على فقراء المسلمين .

٣ - المهـابـة ـــ

كان للظاهربيبرس مهابتـه ، وكان إذا نزل منزلا يلتفت له الجميع ، العدو قبل الصديق ، فضلا عن الجند والرعية ويجمع المؤرخون على أنه هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك . وبغض النظر عن فتوحاته وحملاته العسكرية ، تمكن من قلوب رعيته ، فأحبوه وعظموه ، وانشغل شعراؤهـم بسيرتـه . وأصبح بذلك بطلهم الشعبى وكما يقول عنه عبد الحميد يونس فى مؤلفه : الظاهر ببيبرس فى القصص الشعبي ، إنه "الذى ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط " . وقديما قال فيه أحد الشعراء المعاصرين له :

تدبر الملـك من مصر إلى يمن　　　إلى العراق وأرض الروم والنوبى

ومكارم الأخلاق كثيرة ، وإنما هناك صفات تضئ معلنة عن نفسها فى التصاقها بأهلها . وسوف يرى القارئ من خلال رسائله مزايا أخرى تميز بها الظاهر بيبرس ، مثل ازدرائه بأعدائه وسخريته من ملوكهم ، وإقدامه ، وصفات أخرى كثيرة. وتكفى شهادة العدو قبل الصديق ، فتقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه كان مسلمـا متشددا . وليست هناك مكرُمـة كتشدد إسلام القائد وحرصه على مكارم الأخلاق ، التى بُعث النبي عليه الصلاة والسلام ليتممهـا !

• ١٢٥٠ م بطل معركة المنصورة

فيما يلى الدور الرائع الذى قام به بيبرس فى معركة المنصورة ، وكان آنذاك قائدا لقوات المماليك ولمـّـا يصبح سلطانا بعد :

> استولى روبرت كونت أرتوا (وهو أخو الملك لويس التاسع الفرنسى) على معسكر المصريين وبات سيده بلا منـازع ، وقرر المضى قدما لإحتلال المنصورة والقضاء على الجيس المصرى .

وترجاه قادة نظام فرسان المعبد وكذلك وليم أوف سالزبرى ، أن ينتظر وأن يأخذ جانب الحيطة إلى أن يأتى الملك والجيش الرئيسى إلى المخاضة للإنضمام إليه ، بيد أنه ضرب بتوسلاتهم عرض الحائط ، بل رمى فرسان المعبد والإنجليز بأوصاف مخزية واتهمهم بالجبن ، وركب رأسه مصيراً على التقدم للإستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصرى .

وبعد أن أعاد روبرت كونت أرتوا تنظيم صفوف رجاله ، شن هجوما جديدا على المصريين الذين كانوا يلوذون بالفرار ، ومرة أخرى لم يجد قادة فرسان المعبد والقادة الإنجليز بدا من اللحاق به . على أنه برغم مقتل فخرالدين استطاع قادة المماليك إعادة النظام بين رجالهم ، وتولى القيادة أكثرهم اقتدارا ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري ، ووضع رجاله فى مواقع حساسة داخل مدينة المنصورة ذاتها ، وأمر بترك بوابة المدينة مفتوحة . وهجم فرسان الفرنج على المدينة وتدفقوا داخلها عبر البوابة المفتوحة ، وتقدموا إلى أسوار القلعة ذاتها وفى ذيلهم فرسان المعبد ، وعندئذ خرج المماليك من الشوارع الجانبية الضيقة وانقضوا عليهم كالصواعق ، ولم تتمكن جياد الفرنج من الإستدارة فى شوارع المدينة الضيقة وسرعان ما تبعثروا فى فوضى عارمة ، وتمكن فرسان قليلون من الهرب على أقدامهم إلى ضفاف النيل حيث غرقوا في مياهه ، بينما تمكن عدد آخر قليل من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، واشتبك فرسان المعبد فى قتال الشوارع ، ولم يبق على قيد الحياة من عددهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . وهرب كونت أرتوا مع حرسه الخاص واختفى فى

أحد المنازل لكن المصريين سرعان ما اقتحموا عليهم المنزل وقتلوهم عن أخرهم . وكان من بين قتلى الفرسان فى المعركة إيرل سالزبرى وأتباعه الإنجليز كلهم تقريبا ، وكان بطرس البريتونى معهم فى المقدمة وأصيب بجرح فى رأسه لكنه تمكن من الفرار من المدينة على ظهر جواد وأسرع عائدا ينذر الملك .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبيـــة)

(للمؤرخ الإنجليزى السير ستيفن رانسيمان ، ج ٣ ص ٣١٨-٣١٩)

ولقد انتهت معركة المنصورة بهزيمة ماحقة للجيش الفرنسي ولم تمض أيام قلائل حتى أسر الملك لويس التاسع نفسه بعدما تولت شجرة الدر حكم مصر وأخفت نبأ موت زوجها حرصا على معنويات الجنود المصريين . وبذا ارتفع نجم بيبرس بهذا الإنجاز العسكرى الرائـــع

١٢٥٣م ؟ فرار بيبرس إلى سوريـــا

وأثناء حكم السلطان المملوك عز الدين أيبك ، زوج شجرة الدر، أظهرأيبك من القسوة والغدر حيال رفاقه المماليك ، وخاصة البارزين منهم مثل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية ، ما دفع بيبرس وبعض أمراء المماليك إلى الفرار من مصر إلى سوريا ، وظل متنقلا بين دمشق وحصن الأكراد حتى تولى سيف الدين قطز حكم مصر سنة ١٢٦٠م ، فبعث إليه بيبرس يطلب منه الأمان والعودة إلى مصر، فأجابه إلى طلبه ، وأحسن استقباله وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها

١٢٦٠م البلاء الحسن فى عين جالوت

اشترك بيبرس مع قطز في معركة عين جالوت الشهيرة سنـة ١٢٦٠م وأبلى فيها بلاء حسنًا ، وكان من أبطالها الشجعان المغاوير.

والمعروف أنه لم يكن هناك شئ يوقف المغول فى اجتياحهم من أقصى شرق آسيا حتى غربها ، وحتى دخولهم أوروبا من شرقها , واجتياحهم بغداد وقتلهم الخليفة العباسى المستعصم ، ثم دخولهم سوريا وزحفهم خلال فلسطين ، حيث تصدى لهم السلطان سيف الدين قطـز فى عين جالوت .

فى معركة عين جالوت (١٢٦٠م)

"نما إلى علم قطز وهو فى عكا أن كيتبوغا قد عبر الأردن ودخل سهل الجليل الشرقى ؛ فقاد جيشه على الفوربإتجاه الجنوب الشرقى ، خلال الناصرة ، وفـى يوم ٢ سبتمبر وصل عين جالوت ، أي "عيون جوليات" حيث سبق وأن تحدى الجيش المسيحى صلاح الدين فى عام ١١٨٣م . وجاء الجيش المغولى فى الصباح التالى بصحبة فرسان كتائب جورجيا وأرمينيا المسيحيتين ؛ لكن كيتبوغا كان يفتقر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكى كله على مقربة . وكان قطز على دراية تامة بتفوقه العددى ، ولذا أخفى قواته الرئيسية فى التلال القريبة ولم يُظهر سوى الطليعة التى يقودها بيبرس . ووقع كيتبوغا فى الفخ . إذ قاد رجاله كلهم فى هجوم على العدو الذى رآه أمامه ؛ فتقهقر بيبرس فى لمح البصر داخل التلال والأعداء يتعقبونه فى حماس متقد ،

وفجـأة وجد الجيش المغولى نفسه وقد حوصر كله وقاتل كيتبوغا قتالا رائعا ، وبدأ المصريون يتأرجحون ، ودخل قطز نفسه المعركة لتنظيمهم ؛ على أنه بعد ساعات قليلة اتضحت آثار تفوق المسلمين العددى . وتمكن بعض رجال كيتبوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتبوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قُتِل حصانه ووقع أسيرا ، وأنهى أسره المعركة . واقتيد فى القيود الى السلطان الذى راح يسخـر من سقوطه ؛ فرد فى تحدٍ متنبئا بانتقام مخيـف من المنتصرين ، ومتفاخـرا بأنه ، على خلاف أمـراء المماليـك ، دائم الإخلاص لسيده . فضربوا عنقـه .

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التارخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضآلة بحيث لم يقدر ، فى غيبة الكثيرمن الحظ الحسن ، على الإضطلاع باخضاع المماليك ، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة لأمكن استعواض الهزيمة ؛ غير أن تصاريف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدِّر للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أن يكونوا هم الجنس الحاكم . ولو قُدِّر لكيتبوغا المسيحى الإنتصـار ، لكان فى ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون

الآسيويون فى مركز القوة للمرة الأولى منذ الهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العبث أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك ، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلا . لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية فى الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروزالإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين فى آسيا ؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحى فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين فى غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام . كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام التيوتونى ، باتوا تواقين للإنتهاء من أعداء العقيدة .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية)

(للسير ستيفن رانسيمان ، ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٧)

وهكذا كانت عبقرية بيبرس ، وقيادته للطليعة ، وانسحابه السريع على عجل لدى ظهور الأعداء ، وبلائه في الحرب البلاء الحسن ، كل ذلك أسهم بدرجة كبيرة فى إحراز النصر .

١٢٦٠م حادثة اغتيـال قطـز

أورد المؤرخ العربى أبو الفدا ، وكذلك المقريزى فى مؤلفه (السلاطين) فى الجزء الأول، أن السلطان سيف الدين قطز ، بعد انتصاره الكبير على المغول فى عين جالوت ، انطلق فى رحلة العودة الى مصر تكللـه أكاليل الغار والمجد ، وكان قطز يرتاب فى أكثر قواده كفاءة وهو بيبرس ، وظلت الريبة تتزايد فى صدر قطز يوما بعد يوم . وقد طلب

بيبرس أن ينصّب واليا على حلب ، لكن قطـز رفض طلبـه بصورة جافيـة ، مما أثار حفيظـة بيبرس، لكنه لم يبدها ، وكتمهـا فى نفسه وانتوى الإنتقام من السلطان قطــز .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م جاءت بيبرس فرصته ، إذ كان الجيش المنتصر على المغول يقترب من حافـة الدلتـا ، وذهب قطز للتريض وصيد الأرانب البريّـة ، ومعه بعض خاصتة من أصدقائه وأمرائه وفيهم بيبرس . وعندما ابتعدوا عن المعسكر بمسافة غير قصيرة ، اقترب أحد الأمراء من السلطان ، تدل هيأتـه على أنه سيطلب شيئا من السلطان قطـز ، وبينما كان ممسكا بيد السلطان متهيئـا لتقبيلها ، انقض عليه بيبرس من الخلف وطعن قطز بسيفه فى ظهره . وانطلق المتآمرون على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا نبأ مصرع السلطان . وكان أقطاي ياور السلطان فى الخيمة الملكية ، فدخل عليه المتآمرون وأعلنوه بأنهم قتلوا السلطان ، فسأل أقطاي من فوره أيّهم الذى ارتكب القتل ، فاعترف بيبرس بأنه هو الذى قتلـه ، فدعاه أقطاي إلى الجلوس على عرش السلطان ، وكان أول من قدم له فروض الولاء والطاعة ، وحذا قادة الجيش كلهم حذوه معربين لبيبرس عن فروض الولاء والطاعة . وهكذا عاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا .

ونفهم من هذه الرواية ، دون عناء كبير ، وجود مؤامرة لإغتيال السلطان سيف الدين قطز اشترك فيها أمراء المماليك الذين رافقوه ؛ وأغلب الظن أن أقطاي وبيبرس كانا بمثابة الرأ س المدبر بالتعاون مع باقى الأمراء والقادة . ونعلم كذلك أن قيام دولة المماليك شهد صراعات دموية على السلطة منذ أن اغتيل السلطان توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب آخر ذرية الأسرة الأيوبية ، وقيل إنه أثار حفيظـة المماليك بسوء تصرفه وطيشـه وتخطيطه لإستبعادهم واستبدالهم بأبناء الشمال ، فاغتالوه . ولا شك أن كان للمماليك أسباب أخرى لها ما يبررها ، مما جاء تفصيله فى الكتاب الأول من هذه السلسة (شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر) .

ولا يخفى على أحد أن التآمر والإغتيال قديمان قدم الإنسان على هذه الأرض وحتى يومنا هذا ، وسوف يظل من سمات السلوك الإنسانى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولقد لصقت بالمماليك هذه الصفة ، الفوز بالسلطنة عن طريق الإغتيال ، ويجمع الكافة ، شرقا وغربا ، على استنكار تلك الطريقة الآثمة فى القفز إلى كرسى الزعامة ، ويزدرونها ويعتبرون المماليك قتلة مجرمين آثمين وحوش غير متحضرين .

وبينما نستنكر أسلوب التآمر والإغتيالات ، نلفت النظر إلى أن المماليك لم يأتوا بجديد ، ولم يستحدثوا هذه الوسيلة البشعة وذلك الغدر ببعضهم البعض . فالأثرة والأنانية والتطاحن والقتل من أجل السيطرة كامن فى الإنسان منذ أن قتل أحد ولدى آدم عليه السلام أخاه غيرة وحسدا وحقدا . ولو أننا استعرضنا مسيرة الإنسان على مر التاريخ لوجدنا الكثير من الأمثلة على ذلك .

وتاريخ الإمبراطورية الرومانية حافل بتلك الأمثلة ، أبرزها وأشهرها تآمر بروتوس ورفاقه وقتلهم يوليوس قيصر . وفيما يلى حالات الإغتيال التى حدثت :

فى مصر الرومانية :

* فى سنة ٤٨ قبل الميلاد اغتال بتولمى الثامن Ptolemy XIII بومباي *Pompey* .
* وفى سنة ١٩ م اغتال تيباريوس Tiberius جيرمانيكوس *Germanicus* بالسم .
* وسنة ٢٣م اغتال سيجانوس Sejanus وعشيقته ليفيلا Livilla ، زوجها دروسوس *Drusus*.
* وفى سنة ٣٧ م اغتال كاليجولا Caligula تيباريوس *Tiberius* خنقا .
* وفى سنة ٣٨ م اغتال كاليجولا ، جيميللوس *Gemellus* بعد تبنيه .

وقد أوردنا هذه الحالات على سبيل المثل ،لا الحصر، على الإغتيالات فى الإمبراطورية الرومانية ، ولو سبرنا أغوار الدولة الإسلامية ذاتها لوجدنا الآتى :

فى الدولة الأمويـــة:

✸ تآمر معاوية بن أبى سفيان وقتل الإمام الحسن بن على بالسم ، ناكثـا ما اشترطه على نفسه.

✸ وتآمر يزيد بن معاوية وقتل الإمام الحسين بن على شر قتلة ومثـل به .

✸ وتآمر سليمان بن عبد الملك وقتل زعيم العلويين ، أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، بعد أن دعاه وأعطاه الأمان ودس له السم فى طعامـه .

فى الدولة العباسية:

✸ تآمر هارون الرشيد نفسه وقتل امام العلويين يحي بن محمـد بعد أن أعطاه الأمان .

✸ وتآمر المأمون بن هارون الرشيد ، وقتل أخاه الأمين وتولى الخلافة مكانة عام ٨١٣ م .

فى دولة الأغالبــة بشمال أفريقيا والدولة الفاطمية:

✸ اغتال أبومضرزيادة الله الثا لث والده أبو العباس عبد الله الثانى سنة ٩٠٣م .

✸ وفى الدولة الفاطمية اغتيل الوزير الفاطمى الأفضل سنة ١١٢١م .

✸ وتآمر حسن الصباح صاحب قلعة ألموت وزعيم الحشاشين ولم يتورع عن اغتيا ل ابنــه .

وقائمة اغتيال القادة غدرا وغيلة طويلة ، ولن تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وآخر ما وصل الينا من غدر الإنسان اغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

جون فيتزجيرالد كنيدى فى أوائل ستينات القرن العشرين ، ولو أن المتآمرين لا يزالون مجهولين ، وأغلب الظن أنهم أحكموا تآمرهم بحيث دفنت أسماؤهم مع ضحيتهم فى قبره

ونحرص مرة أخرى على التذكير بأننا لا ندافع عن اسلوب التآمر والإغتيالات ولا نؤيده ، وانما نحرص بالأحرى على التذكير بأن المماليك لم يأتوا بجديد ، وبدلا من ازدرانهم وتحقير أفعالهم ، يكفى أن نلقى عليهم تلك النظرة المشفقة ، ثم نلتفت إلى انجازاتهم الرائعة.

وليست هذه محاولة لتبرئـة بيبرس من التآمـر على اغتيال سيف الدين قطـز ، وإنما هى دعوة إلى التمعن والتدبر فى الخلفية التاريخية التى صحبت قيام دولة المماليك ، جنبا إلى جنب مع إنصاف كل شخصية من الشخصيات المملوكية ، خاصة وأن المعروف أن المماليك نشأوا فى أجواء طفولة الخوف والرعب ، وحرموا من النشأة الأسرية الطبيعية كشأن باقى الأطفال .

وليس كل سلاطين المماليك اعتلوا العرش عن طريق الإغتيا ل وخاصة فى المراحل الأولى . وعلى سبيل المثال ، نودى بعلىّ بن أيبك سلطانا بعد مصرع والده ، ولم يقتله قطـز عندما كان وصيا عليه ، وإنما رأي أنه صبى لا يصلح للقيام بأعباء السلطنة أمام تهديد المغول ، ففعل ما أشار به القائمون على البلاد ووصيتهم بتنحيته جانبا وتولى السلطنة بدلا منه . وكذلك فعل قلاوون مع السعيد بن الظاهر بيبرس . فلم يلجأ أي منهما الى القتل وإن شغلا كرسى السلطنة دون اغتيال السلطان الشرعى أو الوريث .

ومن ناحية أخرى ، يحيط الغموض بما رواه المؤرخون عن سبب الجفوة بين بيبرس وقطز ؛ إذ يقول هؤلاء المؤرخين إن بيبرس " ... ظل متنقلا بين دمشق وحصن الأكراد حتى تولى سيف الدين قطز حكم مصر سنة ١٢٦٠م ، فبعث إليه بيبرس يطلب منه الأمان والعودة إلى مصر. فأجابه إلى طلبه ، وأحسن استقباله وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب

وما حولها ... " وظلت العلاقات بين الإثنين قوية حميمـة ، نكاد نصفها بالصداقة والثقة المتبادلة . ثم يخبرنا المؤرخون أن " قطز كان يرتاب فى أكثر قواده كفاءة وهو بيبرس ، وظلت الريبة تتزايد فى صدر قطز يوما بعد يوم ..." دون أن يذكر المؤرخون سببا لتلك الريبة الآخذة فى التزايد ... ثم يقولون "... وقد طلب بيبرس أن ينصّب واليا على حلب ، لكن قطـز رفض طلبـه بصورة جافيـة ، مما أثار حفيظـة بيبرس، لكنه لم يبدهـا ، وكتمهـا فى نفسه وانتوى الإنتقام من السلطان قطـز ....." ولا نعرف سببا لتلك "الجفوة" بين الرجلين والتى تجعل قطز "... يرفض طلبه بصورة جافية ... " . تلك أحداث تفتقر الى تسلسل طبيعى منطقى يربطها ، وأقاويل المؤرخين مبتورة ، والمؤرخ الحصيف هو الذي يثبت الأحداث التى حدثت ، أما الأقاويل التى قيلت علـى لسان قائليها ، فلا بد أن ترتبط بالأحداث فى تسلسلهـا ، مثل صيحة قطز فى معركـة عين جالـوت "وا إسلاماه" ... سمعها عشرات الجنود المتداعين ، وربما المئات ، فى موقف يطلبها ، موقف قائد يشاهد اقتراب هزيمة جنوده وضياع أمله فى النصر .

ومهما يكن الأمر ، فالثابت أن الأمور استقرت فى مصر للسلطان الجديد بيبرس الذى اطمأن إلى أنه أحكم قبضته على السلطة فى مصر . أما فى دمشق ، فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو سنقر الحلبى الذى كان يتمتع بالشعبية فى دمشق . وسنرى كيف تمكن بيبرس من هزيمتـه فى محاولاته الناجحـة لتوحيد العالم العربى الإسلامى للتصدي للصليبيين والمغول ومن والاهم .

*****

الفصل الثالث

الملك الظاهر

ركن الدين بيبرس الأول

البندقداري الصالحى

* بيبرس السلطان

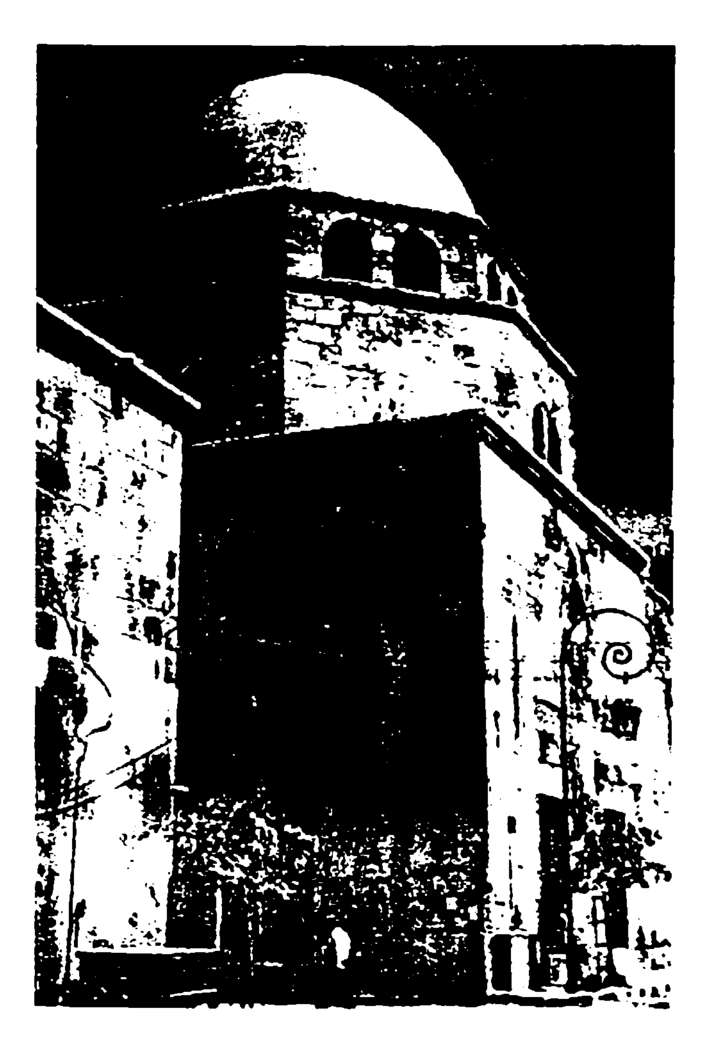
* رجـــل الدولــة

* السياسى المحنّك

ـ الدبلوماسية

ـ صليبيون اختاروه لحمايتهم

* إحيـاء الخلافة العباسيـة



ضريح الظاهر بيبرس ، دمشق ، سوريـا

٧١

بيبرس السلطان

كانت مصر تمر بفترة عصيبة فى ذلك الوقت على الرغم من الإنتصار الباهر على المغول فى عين جالوت . فلا شك أن أن بيبرس كان يتوقع عودة المغول وهم أكثر عزما وتصميما على الإنتقام لأول هزيمة لهم بعد اجتياحهم لأكبر قارة ، قارة آسيا ، واحتلالهم لأجزاء من أوروبا ، فلا بد من الإستعداد لهم ، بينما الصليبيون يلعقون جراحهم التى أصابت كبرياءهم بعد هزيمتهم فى المنصورة وأسر ملك فرنسا وجيشه ، وبعد استيلاء المماليك على دمياط للمرة الثانية ، وعلى القدس التى ضاعت منهم مؤخرا وانتزعها منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب . هما عدوّان شرسان ، المغول كالثور الهائج الذى لا يعرف سوى طعم الدماء ، والصليبيون الذين لا يعرفون سوى الحقد على الإسلام دون سبب أو مبرر .

عقول من الشرق غابت عنها مَلَكَةُ الفكر ، وها هم منقسمون ، المغول أبناء جلدتهم من المغول الذين اعتنقوا الإسلام . وعقول من الغرب لطخها الحقد الأعمى الذى لا يرى ، ولا يفهم التعاليم السمحاء التى أمرهم بها المسيح .

لا بد إذن من إعداد العدة للذود عن أرض الكنانة وعن الشرق .

وما النصر إلا من عند الله العلى القدير الذى أمر بأن يعد المسلمون ما استطاعوا من قوة ليرهبوا أعداء الله وأعدائهم . ومصر لا يعوزها مال ولا رجال ، وإنما يعوزها إيمان وعمل ، والإيمان بعون الله راسخ ، والعمل بإذن الله سيجرى على قدم وساق . هذا ما اهتدى إليه بيبرس بعد أن تربع على عرش السلطنة .

وكانت الشهرة الغالبة للسلطان بيبرس تنحصر فى عاملين اثنين: الأول ، حملاته العسكرية المنتصرة على الصليبيين والمغول وأولياء المغول ، والثاني ، انجازاته الإدارية

الداخلية فى شتى مناحى الحياة المصرية والسورية . وما يزال العوام فى مصر يرددون "سيرة بيبرس" الشعبية التى تعدد بطولاته وانتصاراته على الصليبيين والمغول .

ولم يكد بيبرس يستقر على عرش السلطنة حتى بدأ عهدا جديدًا وصفحة مشرقة في تاريخ مصر، وبدأ في إدارة الدولة من خلال الخاصة والعامة ، فقرّب إليه كبار الأمراء ورجال الدولة ، ومنحهم الألقاب والإقطاعيات الواسعة ، كي يعينوه على إعداد العدة وتنظيم شؤون البلاد .

رجل الدولــة

تقوم الدول على دعامات معينة لا غنى عنها . تقوم أولا على الإدارة الحسنة المخلصة ، وهى دعامة لا بد لها من قادة مخلصين يحفزهم ويرشدهم إخلاصهم الشديد لبلدهم . وتقوم كذلك على تفانى أبنائها ، إذ بدون سواعدهم تهوى الدولة وتنزلق وتضعف وتستشرى فيها الأمراض الإجتماعية . فلا بد من حفز أبناء البلاد وغرس القيم المتوارثه والأمجاد المتواثبة فى صدورهمً وعقولهم . كما تقوم الدول على مواردها ، ومصر لا تنفد مواردهـا ، ففيها النيل الواعد ، وجيل بعد جيل صاعد . وحباها الله بسماء صافية ، وجنات وزروع ، ومقام كريم ، وبحار ومرافئ ومعادن ، وغير ذلك مما لا يخفى على القارئ الفطِن النجيب .

وشمّر بيبرس عن ساعده ، وقد أدرك بعبقريته أن تلك المزايا وغيرها كفيلة بأن ترتقى بمصر لتتبوأ الصدارة بين الدول ، فشق القنوات ، وأدخل التحسينات على الموانئ . ووجه عنايته إلى تخفيف الأعباء عن الأهالي ، فأعفاهم من الضرائب الزائدة ، وأطلق المحبوسين من السجون ، وجدّ في استرضاء رعيته ، والتفت إلى تنظيم الأمور الإدارية ، والقيام بكثير من الإصلاحات الداخلية ، واستحداث بعض الوظائف الإدارية ، والعناية بديوان الإنشاء

عناية فائقة ، وبلغ من دقته أن أخبار الشام كانت تصله مرتين في الأسبوع ، وصار على علم بما يدور في دولته المترامية وكأنه فى كل مكان منها ، وفى كل وقت .

لقد كان بيبرس بحق إداريا من الطراز الأول ، فضلا عن عبقريته العسكريه والدبلوماسية .

وكان البريد من أولويات اهتمامه ، ويروى ابن فضل الله العمرى كاتب الإنشاء فى دمشق أن بيبرس طلب منه مواصلته بالأخبار ، وموافاته بما يتجدد من أخبار التتار والفرنج قائلا له :

"إن قدرت أن لا تبيتنى كل ليلة ولا تصبحنى إلا على خبر فافعل!" . وبذا أقام بيبرس شبكة بريدية ضخمة ، أنفق عليها الأموال الطائلة ، بحيث كان البريد ينتقل بين القاهرة ودمشق فى غضون ما لا يزيد على أربعة أيام ، وهذا أمر لم يتحقق بعد فى القرن العشرين بطائراته النفاثة وتقدمه العلمى والتكنولوجى .

وأدخل بيبرس تعديلات على النظام القضائي في مصر . فكان أول حاكم فى مصر عيّن قضاة يمثلون المدارس الفقهية الإسلامية الأربعة . وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه ، وقام بترميمه وتعميره بعد الإهمال الذي لحقه في العصر الأيوبي ، إذ نقل الأيوبيون اهتمامهم إلى جامع عمرو بدلا من الجامع الأزهر لما كان يرمز إليه من الحكم الفاطمى قبلهم .

وأقام بيبرس عددًا من المؤسسات التعليمية ، فأنشأ المدرسة الظاهرية بالقاهرة ١٢٦٢م التى استغرق بناؤها عامين ، وجعل بها خزانة كتب كبيرة ، وألحق بها مكتبًا لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأنشأ بدمشق مدرسة عرفت باسمه ، وشرع في بنائها سنة ١٢٧٧م ، ولا تزال هذه المدرسة قائمة في دمشق حتى الآن ، وتضم مكتبة ضخمة تُعرف بالمكتبة الظاهرية .

وأنشأ في القاهرة جامعًا عظيمًا عرف باسم جامع الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧م ، ولا يزال قائمًا حتى اليوم ، لكنه تعرض لإهمال شديد .

ويذكر له أنه كان أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك ، فأقام دار العدل سنة ١٢٦٣م ، وخصص يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع يجلس فيهما للفصل في القضايا الكبيرة يحيط به قضاة المذاهب الأربعة ، وكبار الموظفين .

السياسي المحنـّك

الدبلوماسية

فى عام ١٢٦١م أرسل بيبرس سفارة الى الملك الصقلى مانفريد Manfred ، أعقبتها سفارات أخرى إلى إيطاليا . وفى ١٢٦٤م قام تشارلز أوف أنجو Charles of Anjou ، الذي أصبح فيما بعد ملك نابولى وصقلية ، بإرسال سفارة الى القاهرة تحمل رسائل وهدايا ، اعترفا بقوة بيبرس ونفوذه . كما عقد بيبرس معاهدات تجارية مع عواهل يبعدون عن مصر مثل جيمس الأول James I of Aragon فى أراجون والفونسو العاشر فى كاستيل .

ويرد فى كتاب : (الظاهر بيبرس ، اسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشـر) لمؤلفه : بيتر توراو – (ترجمة محمد جديد) ما يلى :

"وبالإضافة إلى ما كان يمتاز به بيبرس من مهارة قتالية ودهاء عسكرى ، فإنه كان كذلك على قدر كبير من الدبلوماسية . فعقد اتفاقيات ومعاهدات دولية ، فاكتسب الحلفاء ، وقويت شوكته . من ذلك أنه تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التى تدين بالأرثوذوكسية ، وهى العدو للكاثوليكية الوافدة مع الصليبيين ، وأغدق الهدايا على بيزنطة وحصل من الإمبراطور ميخائيل

الثامن باليولوغوس Michael Palaeologus على إذن بمرور سفينتين تحملان المماليك عبر مضيق البوسفور إلى البحر الأسود ذهابا وإيابا مرة فى كل سنة . كما أقام علاقات ودية طيبة مع ملك جزيرة صقلية ، شارل أوف أنجو Charles d'Anjou ، وحدث أن عزالدين كيكاووس زعيم سلاجقة الروم استنجد ببيبرس فى صراعه مع أخيه ركن الدين قلج أرسلان المتحالف مع المغول ، فأرسل له بيبرس العسكر لمساعدته . كما تحالف بيبرس مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية المغولية ، وهو أول من اعتنق الإسلام من ذرية جنكيز خان . "

صليبيون اختاروه لحمايتهم

حاول البابا جريجورى العاشر تسيير حملة صليبية جديدة ، وعقد من أجل ذلك مجمع ليون عام ١٢٧٤م ، ولكن دون جدوى . إذ لم يستجب له أحد من عواهل العالم المسيحى استجابة فعلية . وكان هيو ملك قبرص حريصا على الحفاظ على الهدنة الموقعة بينه وبين الملك الظاهر بيبرس . وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت . ذلك أنه بعد موت جون الثانى الإبلينى ، انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التى تُركَت أرملة عذراء فى سنة ١٢٦٧م ؛ على أنها كانت كارهة لعذريتها لغيبة العفة ، وسرعان ما انفصلت عن تلك العذرية وآثرت أن ترتمى فى الرذيلة وباتت علاقتها بجوليان أمير صيدا على كل لسان ، مما أدى إلى صدور مرسوم بابوى حثـّها بشدة على الزواج مرة أخرى. وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها (بيروت) لزوج انجليزي يطلقون عليه هامو الأجنبى ، وربما كان أحد رفاق الأمير إدوارد . وكان زوجها هذا يرتاب فى الملك هيو ملك قبرص ، فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية السلطان بيبرس . وحاول الملك هيو الفوز بالأرملة

وإعادتها إلى قبرص وتزويجها من رجل اختاره لها . وعلى الفور استشهد السلطان بالعهد الذى أوصى به زوجها الراحل هامو وطلب عودتها . ولم تستطع المحكمة العليا مساعدة هيو الذى اضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث تم تعيين حارس مملوكى لحمايتها . ولم يتمكن الملك هيو من مواصلة سيطرته على إقطاعية بيروت إلا بعد وفاة بيبرس بوقت طويل . وتزوجت إيزابيلا زوجين آخرين قبل وفاتها فى سنة ١٢٨٢م تقريبا . وفيما يلى رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى فرنج عكا بشأن تلك المسألة :

رسالة بيبرس إلى فرنج عكا
من أجل ملكة بيروت

هذه الملكة بينى وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهى . وعادتها إذا سافرت تستودعنى بلادها وفى هذه المرة ما سيرت لى رسولا، ولا بد من حضورها وأن تتوجه رسلى وتشاهدها وإلا أنا أحق ببلادها .

(تاريخ ابن الفرات ج ٧- ٣٥)



النمـــر
شعار الظاهر بيبرس



مخطوطة تاريخ ما وراء البحار (أوتريميه)
لجيوم دو تير (١٣٣٧م)
المكتبة الوطنية الفرنسيـــــة

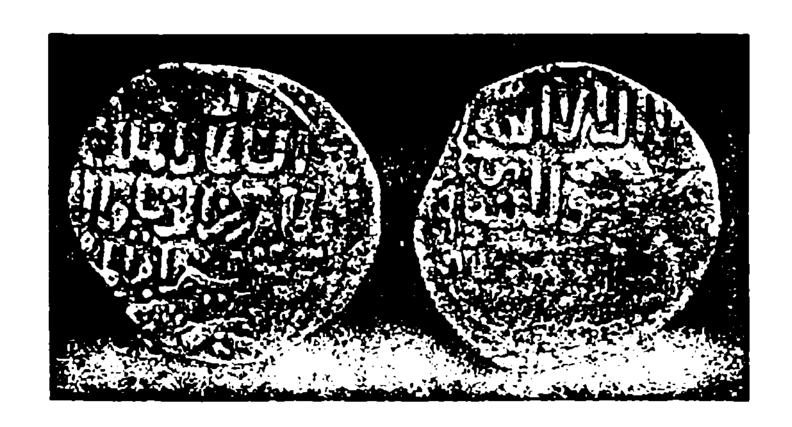
يلاحظ ظهور شعار النمر على دروع الفرسان
ونقش النمر على العملة النقدية



عملة باسم السلطان الملك الظاهر بيبرس
وقد ظهر عليها شعار النمر







درهم القاهرة (عملات مسكوكة باسم بيبرس)



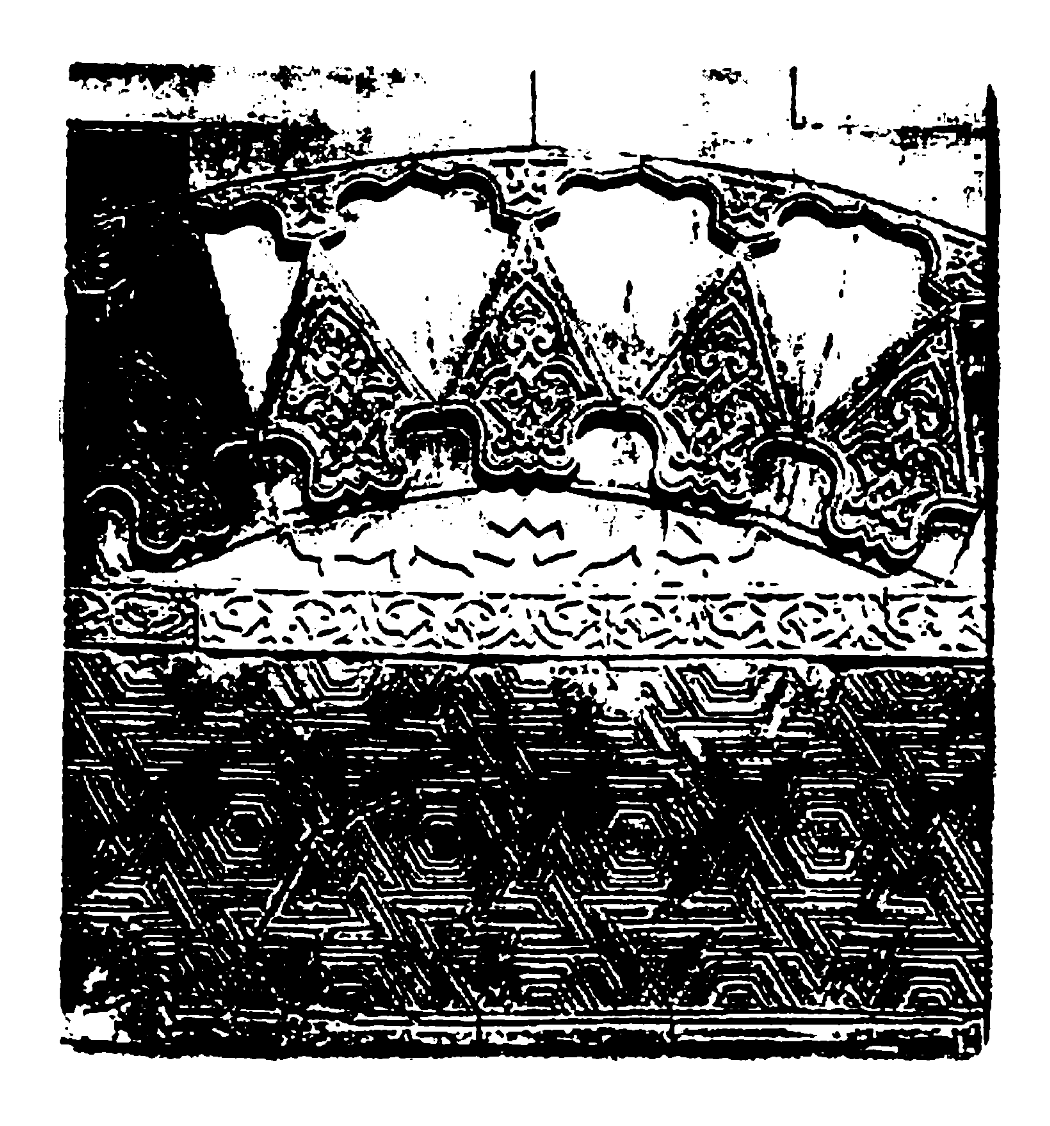
الرواق الجنوبى الغربى لمسجد بيبرس



مسجد الظاهر بيبرس بالقاهرة وقد نالته يد الإهمال



صورة أخرى لجامع بيبرس



بقايا المدرســة الظاهريــة

إحيـاء الخلافة العباسيـة

أدرك بيبرس الأهمية البالغة لإحياء الخلافة العباسية بعد أن ضاعت وقضى عليها المغول وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم فى ١٠ فبراير ١٢٥٨م ، وراح أعداء الأمة الإسلامية من المغول والصليبيين ينتهكون الحرمات ، ويعيثون فى الأرض فسادا . فلابد لهذ الأمة الإسلامية من أن تعود القدوة والمثل الأعلى . ولا بد للإسلام المشرق الوضّاء من أن يعاود سيرته الأولى منارة للناس كافة ، ولا بد للمسلمين من يكون لهم خليفتهم الذى يتمثل فيه المرجع والعون ، خطوة على الطريق الصحيح لكل بلد من بلاد الإسلام ، ، خاصة البلدان الإسلامية الآسيوية التى ما زالت ترزح تحت نير المغول كرمز لها يعيد إليها الأمل .

وتمكن بيبرس من استقدام أحد الناجين من أسرة العباسيين هو "أبو العباس أحمد"، وعقد في القلعة مجلسًا عامًا في ٢٢ من نوفمبر ١٢٦٢م حضره قاضي القضاة وكبار رجال الدولة ، وقرئ نسب الخليفة على الحاضرين بعدما ثبت عند القاضي ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعَه بيبرس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله . ولما تمت البيعة أقبل الخليفة على بيبرس وقلده أمور البلاد ، وبذلك أصبح بيبرس سلطانا شرعيا معترفا به لإدارة شئون البلاد . واحتفظ الخليفة العباسي بالواجهة الدينية الشرعية للسلطان المملوكي وتقرر الدعاء له وذكر إسمه على المنابر في صلاة الجمعة .

على أن هناك بعض المؤرخين الغربيين الذين تناولوا هذه الخطوة العظيمة التى خطاها الظاهر بيبرس وحولوها إلى غير غايتها ، وعالجوها معالجة تحريف وتشويه . ونضرب لذلك مثلا بما قاله المستشرق (بيترتوراو) فى دراسته الأكاديمية حول شخصية بيبرس التى نال بها درجة الدكتوراة من جامعة (إيبرهارد- كارلزبتبنغن) فى ألمانيا عام ١٩٨٥م ، والمذكورة فى كتاب : (الظاهر بيبرس ، اسهام في تاريخ الشرق الأدنى في القرن الثالث عشـر) لمؤلفـه : بيتر توراو – (ترجمة محمد جديد) :

"ولعل من المسائل اللافتة فى كتاب المستشرق توراو مسألتين اثنتين : أولهما : إحياء بيبرس الخلافة العباسية فى القاهرة . عالج الباحث هذه المسألة بعناية ودقة فى القسم (٢- ٢) من كتابه تحت عنوان : خلافة الظل فى القاهرة ، وكشف أن بيبرس كان يدرك مدى أهمية إحياء الخلافة فى القاهرة لتسويغ مشروعية سلطته . فنجاح السلطان فى تحقيق هذا الهدف سيشكل سنداً قوياً يساعده على تثبيت دعائم حكمه المتقلقل ، فى مصر والشام ، وستصبح القاهرة حاضرة السلطنة حينذاك مقر السلطتين الدينية (الخلافة) والدنيوية (السلطنة) فتفيد دولته من ذلك فائدتين كبيرتين هما :

✹ أن سلاطين المماليك من بيبرس فصاعدا سيظهرون أمام العالم الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وهذا ما يجعل بيبرس فائقا أنداده فى سائر أنحاء العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، وستنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامى الإسلام والمسلمين .

✹ أن سلطة المماليك ستحظى بشرعية ما كانت لتكسبها من مصدر آخر، حين يقر الخليفة بيبرس سلطانا ، ويطلق يده فى شؤون البلاد والعباد ، بتفويضه لصلاحيات الدنيوية المنوطة أساسا بالخليفة ، وهذا ما سيعزز هيبة الظاهر بيبرس ، ويجعله حاكما شرعيا يستمد سلطانه ونفوذه من السلطة الدينية العليا فى حكم المسلمين ، متمثلة بشخص الخليفة . ولا يعود ، حسب ما يروجه عنه أعداؤه ، بأنه مغتصب السلطة من أصحابها الشرعيين ، أو حتى من سلفه المظفر قطز ، وإنما يصبح بيبرس فى صورة السلطان الذى اختاره الخليفة لحكم البلاد ، وقلده مقاليد الأمور، ليس فى الديار المصرية والشامية

فحسب ، بل فى جميع البلاد الإسلامية وما سيفتحه من أيدى الكفرة ، وتتقهقر من ثم أمال الأيوبيين باستعادة سلطتهم الضائعة فى تلك البلاد بسقوط فكرة لامشروعية حكم بيبرس وأسلافه من سلاطين المماليك ، وهو ما حصل واقعا وفعلا ..."

وتظهر وجهة نظر المستشرق المذكور أعلاه فى أن أهداف بيبرس من إحياء الخلافة العباسية كانت شخصية بحتة وهى "تسويغ مشروعية سلطته" ، وستكون الخلافة "... سنداً قوياً يساعده على تثبيت دعائم حكمه المتقلقل ، فى مصر والشام..." . ولا نتفق مع هذا المستشرق فى أن بيبرس كان يهدف إلى "تسويغ مشروعية سلطته" بعدما أقرها قاضى القضاة وكبار رجال الدولة وعلم بها الناس داخل مصر وخارجها . كما نستنكر ما تخيله المستشرق من أن حكم بيبرس كان "متقلقــلا فى مصر والشام" ؛ فليس هناك ما يؤيد تلك "القلقلة" أو حتى يدل عليها ، بالنظر إلى تاريخ بيبرس الحافل بالإنتصارات العسكرية سواء قبل توليه السلطنة أو بعدها ، وبالنظر إلى الإصلاحات الداخلية فى كل من مصر والشام والتى كانت تجرى على قدم وساق كما مر بنــا .

وعن الفائدتين المذكورتين فيما استشهدنا به على لسان ا لمستشرق ، وأولهمـا أن :

" سلاطين المماليك من بيبرس فصاعدا سيظهرون أمام العالم الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وهذا ما يجعل بيبرس فائقا أنداده فى سائر أنحاء العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، وستنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامى الإسلام والمسلمين ."

نقول إن الخلافة أصلا ليست فى حاجة إلى من يحميها ويحمى أشخاص خلفائها ؛ والعكس هو الصحيح ، فعلى الخليفة توفير الحماية للرعية بما يراه . هذا ما يفهمه المسلمون وتقضى به شريعة الإسلام . ومن ناحية أخرى ، لم يكن بيبرس ، بعد الإنتصار الباهر فى عين جالوت ومن قبله فى المنصورة ، إلى أن "يظهر فائقا أنداده فى سائر أنحاء العالم ...." هذا إن كان لبيبرس أنداد فى زمانه فى أي مكان من العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، فضلا عن أنه أثبت فى واقع الأمر أنه ـ ومعه المماليك ـ حامى الإسلام والمسلمين كما قدمنــا .

وغنى عن البيان ضعف الفائدة الثانية ، ألا وهى الشرعية ، بعد تأييد قاضى القضاة وأهل الحل والعقد وعامة المسلمين فى مصر والشام .

ومن الأمور المحيّرة أن يذكر المستشرق وجود خليفة عباسى آخر غير الذي أعاده بيبرس فى القاهرة ، ثم يتنبّـه بيبرس إلى خطورة إحياء الخلافة العباسية ، ويتصرف بسرعة بحيث يترك الخليفة الآخر يلقى حتفه فى الصحراء :

" ... وألمح الباحث إلى أن الظاهر بيبرس قد تنبّـه على خطورة استقدامه الأمير أحمد ، أحد العباسيين الناجين من مذبحة المغول فى بغداد إلى القاهرة ، ومبايعته بالخلافة باسم المستنصر بالله (عـام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م) إذ شعر أن ليس من مصلحته أن تقوم إلى جانبه سلطة يعدها المسلمون كافة بمنزلة السلطة الوحيدة فى العالم الإسلامى ، وشرع يعد العدة لإبعاد الخليفة عن القاهرة ، بعد أن أقامه فيها بضع شهور ، فزين له أنه سيعمد إلى تلبية أمنيته بإعادته إلى بغداد ، ورتب له بعض الأمراء والعساكر، ثم خرج برفقته إلى دمشق . ويرجح توراو أن ثمة من نصح السلطان حين وصوله إلى دمشق بالعدول عن أداء هذا المشروع ، لأن إعادة الخلافة إلى

> بغـداد ، فى حال إخراج المغول من العراق ، سيشكل خطرا أكيدا على سلطنة المماليك ، وهذا ما أثار الشكوك فى نفس السلطان ، ودفعه إلى ترك الخليفة يخترق الصحراء برفقة قوة صغيرة من الأعراب والترك ، كي يلاقى وصحبه مصيرهم المحتوم على يد المغول ".

ويسوّغ المؤلف إعادة بيبرس الخلافة العباسية الثانية إلى القاهرة بمبايعة عباسى آخر باسم : الحاكم بالله ، بعض مضى عام على مقتل المستنصر ، باطمئنان السلطان إلى استقرار حكمه فى مصر والشام واستغنائـه عن ظهور خليفة مغلوب على أمره إلى جانبه فى المناسبات العامة ، وبعدم حاجته إلى إسماع كلمته للرعية ، وأضحت مهمة الخليفة محصورة بتأمين الغطاء الدينى للسلطان عند الحاجة . ومنذ ذلك الحين تخلى الخليفة العباسى القابع فى القاهرة، وإلى الأبد ، عن تحقيق حلمه الكبير بإعادة الخلافة إلى بغداد ...

ولا ينطلى ما رواه المستشرق إلا على كل سـاذج ، فإن " ترك الخليفة يخترق الصحراء برفقة قوة صغيرة من الأعراب والترك " بعيد عن التخيل ، فلا تستطيع قوة صغيرة أن ترافق الخليفة العباسى إلى العــراق ، وتعيده خليفة للمسلمــين ، حيث المغـول قابعــين فــى أرجاء البلاد هناك . كما أن تصوير بيبرس بالرجل الذي يتأرجـح ويغيّر أفكاره بعـد " استقرار حكمه فى مصر والشام واستغنائـه عن ظهور خليفة مغلوب على أمره إلى جانبه فى المناسبات العامة ، وبعدم حاجته إلى إسماع كلمته الرعية ..." ، أمر واضح التناقض مع كامل سيرة الظاهر بيبرس نفســه ، بل ومع ما تخيله المستشرق من احتياج بيبرس إلى غطاء شرعي لحكمه



الفصـل الرابــع

حملات بيبرس العسكرية

- الإستعدادات العسكرية
- الإستيلاء على دمشق
- الإستيلاء على قيسارية
- الإستيلاء على حيفا وأرصوف
- الإستيلاء علىَ صفد
- بيبرس وعكا
- بيبرس وقبرص
- بيبرس وملك صقلية
- بيبرس وأمير طرابلس
- فى معسكر الصليبيين
- فيليب أمير مونتفورت
- الإستيلاء على قلعة الكرك

الإستعدادات العسكرية

تعززت سلطنة الظاهر بيبرس وصبغها الخليفة العباسى الجديد بصبغة الشرعية كما مر بنـا . ولم تقف طموحاته عند ذلك ، وإنما كان دائما ما يتذكر أمجاد صلاح الدين الأيوبى وأياديه وما أنجزه سابقوه من توحيد العالم العربى الإسلامي . لقد نجح صلاح الدين فى إقامة إمبراطورية حكمها وتوارثتها أسرته من بعده ، فعليه أن يسير على الدرب ويحذو حذوه وتسترجع الدولة الإسلامية مجدها . فبدأ بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا فأصبحتا دولة واحدة وتوحدت القيادة العسكرية فى مواجهة الصليبيين .

وشمّر عن ساعده وأفلح فى ترتيب البيت المصري ، ليعاود نشاطه للتصدى لأعداء الأمة الإسلامية: الصليبيين والمغول . وراح يصلح النقاط العسكرية ويقويها ويرمم ما بلى منها ، وقام ببناء ترسانات جديدة ، لكل من السفن الحربية وسفن النقل البحري للبضـائع .

ولم يغب عن ذهن بيبرس أن الزراعة عماد الإقتصاد فى مصر ، فأنشأ مقاييس شتى للنيل ، وأقام الجسور، وحفر الترع . كما أدرك أن أعداء الوطن يتربصون بمصر الدوائر ، فاهتم بالصناعة وبخاصة ما يحتاج إليه الجيش من آلات الحصار والأسلحة والآلات الحربية .

وكما أنشأ بيبرس الترسانات والسفن البحرية وسفن البضائع ، كان إداريا مقتدرا ، فبنى شتى مشاريع البنية الأساسية ، كالجسور وقنوات الري وقنوات الملاحة . كما عزز من الموانئ وبنى المساجـد . وأعاد بناء كل القلاع والحصون السورية التى دمرها المغول .

١٢٦١م الاستيلاء على دمشق

هذا ما جادت به عبقرية بيبرس . وتحقق ما كان يتوقعة ، إذ لم يكد يمر عام واحد على توليه السلطنة حتى عاود المغول الهجوم على حلب ، مما هدد سيطرة بيبرس على سوريا ؛ بيد أن أميرى حماه وحمص الأيوبيين هزما المغول ، بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم

سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير١٢٦١ م ، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر ، لكن بيبرس سحق مقاومتهم ، ثم مضى ليتعامل مع الأيوبيين ؛ فأغرى أمير الأكراد بوعود براقه كي يعترف بسيادته العليا ، ثم أزاله بهدوء ، وسمح للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينتـه حتى وافته المنية بعد ذلك بعامين أي فى سنـة ١٢٦٣م , وفى أوائل العام التالى١٢٦٤م اتفق النظامان الدينيان العسكريان ، نظام فرسان المعبد ونظام فرسان المستشفى على توحيد قواتهما المقاتلة والإستيلاء على حصن ليزون ، أو ماجدّو فى مدينة ماجدّون القديمة . وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة وتقدما حتى عسقلان ، وفى خريف ذلك العام توغل الجنود الفرنسيون ، وهم الذين يتحمل القديس لويس التاسع ملك فرنسا نفقاتهم ، حتى ضواحى بيسان .

وعلى مدى ست سنوات متتالية ، من ١٢٦٥م إلى سنة ١٢٧١م ، كان بيبرس ينطلق فى حملات تكاد أن تكون سنوية . فمن قيسارية إلى حيفا ، ومنها إلى عثليت ، ثم أرصوف .

على أن أهم مدينة استولى عليها بيبرس كانت أنطاكية (فى مايو ١٢٦٨م) وباستيلائه على مواقع أخرى حصينة سنة ١٢٧١م كان قد دمغ مصير الصليبيين واستحال عليهم استرداد الأراضى التى سبق أن فقدوها . وبذا فإن حملات بيبرس جعلت إمكان إحراز النصر النهائى على يد خلفائه ممكناً . لقد كان الهدف الدائم الذى يشغل بيبرس هو احتواء الهجمات المغولية على سوريا من الشمال ومن الشرق ، وهى الهجمات التى كانت تهدد قلب الشرق الإسلامى .

١٢٦٥م الإستيلاء على قيسارية

وفى أوائل العام الجديد ١٢٦٥ م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب للتصدى للمغول الذين بدأو يعتدون على شمال سوريا . ولما علم أن جنوده فى الشمال أوقفوا المغول ، قرر استخدام جيشه فى مهاجمة الصليبيين فى الجنوب . وظهر فجـأة أمام

قيسارية ، وسقطت المدينة على الفور فى ٢٧ فبراير ، واستسلمت الحامية بعد أسبوع فى الخامس من مارس ، وسمح لها بالرحيل ، أما المدينة والقلعة فقد دمرهما بيبرس وسواهما بالأرض .



بقايا كنيسة الصليبيين فى قيسارية

١٢٦٥م الإستيلاء على حيفا وأرصوف

وبعد أيام قلائل ظهر جيش بيبرس عند حيفا . وكان أهلوها قد شعروا بالخطر مسبقا ، فهربوا فى قوارب تاركين المدينة والقلعة ، فدمرهما الجنود تدميرا كاملا . وأما من آثر البقاء فكان مصيره القتل . وفى تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المعبد العظيمة فى عثليت ، وأحرق القرية الواقعة خارج الأسوار ، لكن القلعة نفسها نجحت فى مقاومته . وفى ٢١ مارس رفع عنها الحصار وانطلق إلى مدينة أرصوف التى كان فرسان المستشفى قد حصنوها بحامية قوية وخزنوا فيها المؤن بوفره . وكان بداخل القلعة ٢٧٠ فارسا حاربوا بشجاعة كبيرة ، غير أن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ إبريل بفعل آلات الحصار التى دمرت أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة بعد أن فقد ثلث فرسانه ، وبعد الوعد بمرور آمن لمن بقى على قيد الحياة . وتراجع بيبرس عن وعده وأخذهم جميعا فى الأسر .

وأصيب الصليبيون بالرعب لضياع تلك القلاع العظيمة ، حيفا وأرصوف ، ومن قبلهما قيسارية . وبدأ البعض يفكر فى الهرب قبل فوات الأوان ، سواء منهم الأمراء أو الأفراد العاديين ، فبدأوا يعدون العدة للرحيل . وألهمت هذه الخسارة المنشد المتجول (تروبادور) ريكوت بونوميل R. Bonomel فأنشد قصيدة مريرة يشكو فيها من أن المسيح يبدو الآن مسرورا لما لحق بالمسيحيين من مذلة *Poesie Provenziale* .



١٠٣

رسالة بيبرس إلى القاضى ابن خلكان
بفتح قيسارية وأرصوف
من إنشاء فتح الدين عبد الله بن القيسرانى

جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامى القضائى وأسرّه بما أسمعه وأبطل ببركته كيد العدو ودفعه ، وجاء بها سبب الخير وجمعه ، ولا زالت التهانى إليه واردة والمسرات عليه وافدة ونعم الله وبركاته لديه متزايدة . هذه المكاتبة تبشر بنصر من الله وفتح قريب ، وهناء يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب ، ونوضح لعلمه الكريم أنه لما كان يوم الإثنين التاسع من رجب المبارك قدمنا خيرة الله تعالى وزحفنا على مدينة أرصوف بعساكرنا المنصورة ، وأدرنا بها الأطلاب للزحف ، وكانت مرتبة على أحسن صورة وتناولناها مناولة القادم إذا ضم ضمة المشتاق ، واستولينا علىجميع أهلها فأضحى كل منهم من القيد فى وثاق ، وأضرمنا بها النيران ، فعجل الله لهم بها فى الدنيا قبل الآخرة الإحراق ، وجرعناهم غصص الموت فتجرعوها مرة المذاق . وكانت مدة القتال ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس ثانى عشر شهر رجب المبارك فلم يفلت منهم أحد ، وعاجلناهم فى هذه المدة القريبة فلم يغنهم ما فعلوه فى تحصين البلـد ، واحتطنا بهم فما نجا منهم بحمد الله صغير ولا كبير . وعجـلنا للمجلس بهذه البشارة ليأخذ منها حظاً وافراً ويقرأ آيات نصر الله على أصحابه من الفقهاء والعدول . ويحدث بها فيكون تاليا لها بين الأنام وذاكراً ، ويكتب مضمون ذلك إلى نوابه من الحكام

ليشهر هذا الخبر السعيد بين الأنام ، ويواصلنا بدعائه فإننا نرجو به الزيادة . والله تعالى يجزينا ويجزيه من ألطافه على أجمل عادة ، بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى . كتب ثانى عشر شهر رجب المبارك وبين الأسطر، وعدة الأسرى ألف أسير ، وأما القتل فكثير لأن القلعة أخذت بالسيف .

(ذيل مرآة الزمان لليونينى ج ٢ / ٣١٩- ٣٢٠)

١٢٦٦م الإستيلاء على صفد

وفى صيف عام ١٢٦٦م انطلق من مصر جيشان ، الأول يقوده بيبرس نفسه وسار به إلى عكا . لكنه تحول عنها وظهر فجأة أمام صفد التى يسيطر عليها فرسان المعبد فى قلعتها الضخمة المطلة على باقى الجليل المرتفع . وكانت تحصيناتها قوية ، وحاميتها وفيرة العـدد، أغلب أفرادها من المسيحيين الوطنيين أو أنصاف الوطنيين . وتمكنت الحامية من صد أول هجوم للسلطان يوم ٧ يولية ، كما لم ينجح أي من هجومية التاليين فى ١٣ و ١٩ من نفس الشهر . فأرسل المنادين يعلنون منح العفو التام لكل من يستسلم من الجنود الوطنيين ، وفى الحال تحركت الريبة والشك لدى فرسان المعبد ، وتبادلوا الإتهامات وتطور الخلاف بينهم وأصبح قتالا ، وبدأ السوريون فى الفرار مستجيبين لندائه واثقين فى كلمتـه . وسرعان ما اكتشف فرسان المعبد استحالة صمود القلعة ، وفى أواخر الشهر أرسلوا أحد أتباعهم السوريين ، وهو ليو السوري ، يعرضون على بيبرس الإستسلام ، وعاد ليو بوعد بانسحاب الحامية إلى عكا فى أمان . وبعد أن سلم فرسان المعبد القلعة لبيبرس قطع رؤوسهم جميعا ، ويبدو أن الأمر كان يشتمل على مؤامرة ، فقد تحول ليو

السورى إلى الإسلام على الفور . وباستيلاء بيبرس على صفد أمكنه السيطرة على الجليل كله .

رسالة بيبرس إلى القاضى بن خلكان
بمناسبة أخذ صفد
من إنشاء كمال الدين أحمد بن العجمى

سر الله خاطرالمجلس السامى وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر ، وأمتع نواظره باستجلاء محاسنها النواضر ، وواصلها إليه متوالية تواجهه كل يوم بمراتبها الزواهى الزواهر ، وأماثلها لديه متضاهية الجمال متناسبة فى حسن المبادى والأواخر ، ولم تزل وجوه البشائر أحسن وجوه تستجلى ، وألفاظه أعذب ألفاظ تستعاد وتستحلى . وإذا كررت على المسامع أحاديث كتبها لا تمل بل تستمنى ، لا سيما إذا كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين ، ونبأ فتح نرجو أن يكون طليعة فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين ، فإن أنباءها تجل وقعا وتعظم فى الدنيا والآخرة نفعا ، وتود كل جارحة عند حديثه أن تكون سمعا لحديث هذا الفتح الذى كرم خبرا وحسن أثره فى الإسلام وردا وصدرا ، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حيداءً والسامرون سمراً . وهو فتح صفد واستنقاذه من أسره واسترجاعه إلى الإسلام ، وقد طالت عليه فى النصرانية مدة من عمره ، واقرار عين الدين بفتحه ، وكان قذى فى عينه وشجى فى صدره . وقد كنا لما وصلنا الشام بالعزم الذى نفرته دواعى الجهاد ، وأنقذته عوالى الصفاد وقربته أيدى الجياد ملنا على سواحل العدو المخذول ، فغرقناه ببحار عساكرنا الزاخرة ، وشنينا بها من الغارات ما ألبسها ذلا رفل بها الإسلام فى

ملابس عزه الفاخرة . وهى وإن كانت غارة عظيمة شنت فى يوم واحد على جميع سواحله واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستبيح من حرمه وحرمه مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين واسترهفنا بها همم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللهنة قبل الطعام للساغبين ، واعقبنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، وتبيناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرا ، وهى صفد التى باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ومراد مراده وبحر رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، وكم استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلما ، وكم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فحازوا مغنما وقوضوا معلما ، فنازلناها منازلة الليل بانعقاد القساطل ، وطالعناها مَطالعة الشمس ببريق المرهفات وأسنة الذوابل ، وقصدناها بجحفل لم يزحم بلدا إلا هدمه ولا قصد جيشا إلا هزمه ، ولا ألمّ ممتنعا طغى جباره إلاسهله وقصمه ، فلما طالعتها أوائل طلائعنا منازلة ، وقابلتها وجوه كماتنا المقاتلة اغتر كافرها فبرز للمبارزة والقتال ، ووقف دون المنازلة داعيا للنزال . فتقدم إليه من فرساننا كل حديد الشبا جديد الشباب يهوى إلى الحرب فيرى منه ومن طرفه أسد فوق عقاب ، ويخف نحوها متسرعا فيقال: أذا لقاء أعداء أم لقاء أحباب ؟! فهم فوارس كمناصلهم رونقا وضياء ، تجرى بهم جياد كذوابلهم علانا ومضاء ، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيه فيظن فى أعطافهم كسل ، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجهلت

الحرب من منهم الأسل . فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من رماحها بأساودها ، وتبدى ظمأ ًلا ينقعه إلا أن تَرِدَ من دماء الأعداء محمرمواردها ، وأنها قد أقبلت نحوهم بجحافل تضيق رحب الفضاء، وتحقق بنزولها ونزالها كيف نزول القضاء ، وأنه جيش بعثه الله بإعزاز الجمعة وإذلال الأحد ، وعقد برايته مذ عقدها أن لا قِبل بها لأحد ، وأن الفرار ملازم أعدائه ولا قرار على زأر من الأسد ، ولوا مدبرين وأدبروا على أعقابهم ناكصين ، ولجأوا إلى معقلهم معتقلين لا متعقلين . فعند ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق بخصره ، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره ، وأمطرنا عليه من السهام وبلا سحبت ذيول سحبه المتراكبة ، وأجرينا حولها من الحديد بحرا غرقه أمواجه المتلاطمة وضايقناها حتى لو قصد وفد النسيم وصولا إليه لما تخلص ، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئا لعجز لأخذنا عليه أن يتقلص . ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الغوارب عاري المناكب ، عبل الشوى سامى الذري ، له وثبات تحمل إلى الحصون البوائب ، وثبات تزول دونه ولا يزول الشواهق ، ترفع لمرورها الستائر فتدخل أحجاره بغير استئذان ، وتوضح لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها ، وتقبل ثنيات ثغره حتى ابدى ثرمها . وفى ضمن ذلك لصق الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففتحوها أسرابا ، وأججوها جحيما يستمر جمرها التهابا ، فصلى أهل النار بنارين من الحريق والقتال ، ومنوا بعذابين من حر الضرام وحد النصال ، هذه تستعر عليهم وقودا ، وهذه تجعل هامهم للسيف غمودا .

فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم ، وأصبح ثغرهم الذى ظنوه عاصما لا يغنى عنهم ، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بدا ، وثبتوا متحابين يقدون بيضهم البيض والأبدان قدا ، فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها مقيلا وتحققوا ما أعده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلا . فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسُقط فى أيديهم وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقسى تمنيهم ، فعدلوا عن القتال إلى السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداعوا بالأمان صارخين وجاؤوا بدعاء التضرع لاجين ، فأغمد الصفح عنهم بيض الصفاح ، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا المنصورة فشرفوا بها الشرفات ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات . وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال ، وتحكم نوابنا على ما بها من الذخائر والأموال ، ونودي فى أرجائها بالواحد الأحد ، واستبدل للجمعة يوم الجمعة من يوم الأحد . ونحن نحمد الله على هذا الفتح الذى أعاد وجه الإسلام جميلا ، وأنام عين الدين فى ظل من الأمن مدة ظليلا. وألان من جانب هذا الثغر مالا ظُن أن سيلين ، وقلل من صعبه ما شرح به صدر الملك والدين ، فإنه حصن مرعليه دهر لم يمر فتحه بالأوهام ، ولا تطاولت إليه يد الخطب ولاهمة الأيام ، وربما كان يجد منفسا فيدعو الملوك إلى نفسها فيصامموا ، وتخطيهم وممرها أدنى حرب فيرغبوا فى العزلة والمسالمة فيسالموا ، ألهاهم عن فخر فتحها الرغبة فى رفاهية عيشة

ظنوها راضية ، ووقف بهم دون السعى فيه همة لنزول الدنايا متغاضية ، وجنح بهم مراد السلم وإرادة السلم كانت عليهم القاضية والمجلس – أيده الله – يأخذ حظه من هذه البشرى ويقر بها عينا ويشرح بها صدرا ويملى وجوه بشائرها من هذه المكاتبة على عيون الناس من كل حاضر وبادٍ ، ويستنطق بها ألسن المحدثين وفى كل محفل ونادٍ . والله يحرس المجلس ويسهل بهمته كل مراد إن شاء الله تعالى فى التاريخ المذكور وقت الفتح .

(ذيل مرآة الزمان لليونينى ج ٢ ٣٣٨-٣٤٣)

وكانت الخطوة التالية بعد الإستيلاء على صفد مهاجمة طورون التى سقطت له بلا قتا ل تقريبا . ومن طورون أرسل الجنود لتدمير القرية المسيحية (قرة) الواقعة بين حمص ودمشق لإرتيابه فى اتصالها بالفرنج ؛ فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا .

١٢٦٧م بيبرس وعكا

ثم جاء دور عكا ، وكان الوصى عليها ، هيو أمير أنطاكية ، قد سارع وعبر البحر بما استطاع جمعه من الرجال ، وكانت هناك هدنة بين بيبرس وفرنج الساحل ، إلا أنهم نقضوها ولم يحترموا شروطها ، فزحف بيبرس متجها إليهم ، ولما اقترب من عكا أصابهم الرعب وراسلوه متوسلين استمرار الهدنة ، وادعوا أنهم لم يعلموا بقدومه ، فأرسل إليهم كتابا يقول فيه :

رسالة بيبرس إلى فرنج عكا

من يريد أن يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة ، ومن خفى عليه خروج هذه العساكر وجهل ما علمته الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه من كثرتها التى لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه

التراب الذى أثارتـه خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى موقان (اقليم فى أذربيجان) من التتر. فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب مدينتكم ولا تدرون ، فأي شـئ تعلمون ؟ وماذا تحيطون به علما ؟ ولم لا أعطيتم لوالى غـزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر؟

(كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ق ٢-٤٨٣)

رسالة أخرى من الملك الظاهر بيبرس
إلى مقدم الإستبارية فى عكـا

حصلت عدة مراسلات بين الملك الظاهر بيبرس ومقدم الإستبـارية (يعنى السيد الأعظم لفرسان المستشفى) حول نقضهم الهدنة المعقودة بين الطرفين ، وخالف الإستبارية شروط الهدنة فحصنوا عكا ، وأرسل السلطان إلى مقدمهم (يعنى سيدهم الأعظم) عدة رسائل مستفسرا وأرسلوا له عدة أجوبة لم يطمئن إليها ، وأخيرا أرسل إلى مقدمهم يقول :

أما تجديد الريض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ما تحفظ بالأسوار ، ولا تحفظ بالرعية ولا بالخنادق ، ولا تحفظ إلا بأحد أمرين : إما بالسيوف والعزائم ، وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى . ومن يخاف من اللصوص لِمَ لا يخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتـار فقد علم كل أحد أنا عندما تحصنتم بالأسوار والخنادق خرجنا نحن إلى التتار . وما جعلنا حصوننـا إلا خيولنا ، ولا خنادقنـا إلا سيوفنا ، ولا أسوارنا إلا رجالنا ، وأما قولكم إن قلاعكم ما تخاف إلا الله ، ولا يجسر أحد أن يصل إليها ، فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء الله تعالى

ولا يفزع من أخبار التتار إلا مثلكم . وإلا هذه عساكرى أولها فى الفرات وآخرها فى عيذاب وها هى متواصلة.

(كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ، ق ٢-٩٦٥)

وفى مايو ١٢٦٧م ظهر بيبرس مرة أخرى أمام عكا رافعا الرايات التي استولى عليها من فرسان المعبد والمستشفى ، وتمكن بذلك من الإقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة ، لكن هجومه على الأسوار لم ينجح ، فرضى بنهب الريف تاركا الجثث المنزوعة رؤوسها فى الحدائق المحيطة بعكا إلى أن جازف المواطنون بالخروج لدفنها . وعندما أرسل الصليبيون سفراءهم طلبا للهدنة استقبلهم فى صفد حيث كانت القلعة كلها محاطة بجماجم الأسرى المسيحيين القتلي .

بيبرس وقبرص

كانت قبرص أقرب بقعة للصليبيين وكانت تحكمها أسرة آل لوزجنان الصليبية ، وكان الوصى على عرش قبرص هو الأمير هيو الأنطاكى . وقد أرسل هذا الوصى قوة كبيرة من قبرص لمساعدة الصليبيين فى حربهم مع بيبرس قدرها المقريزى بحوالى ألف وخمسمائة فارس .

وفى خضم حروب بيبرس واستيلائه على الحصون والمدن كما مر بنا ، هبت رياح على السفن فكسرتها وأسر من فيها من الجنود ، مما أدخل الفرحة على ملك قبرص الذى أرسل يخبر السلطان بيبرس بذلك ، ويعيّره ، فأجابه السلطان بيبرس بما يلى:

١١٢
رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس
إلى ملك قبرص

إلى حضرة الملك لوك : ذكر ببالى ، جعله الله ممن يوفى الحق أهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثيرمن قضائه باليسير، وأحسن إليه بالتدبير فيما جرت به المقادير. وقد كنتَ عرفتنا أن الهوا كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين (وهو من حصون الصليبيين المنيعة بالشام)، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب، الإستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح . واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح . إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشئ فى يوم واحد عدة قطايع ، ولا ينشئ لكم من احصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم فى مائة عام قلعة . وما كل من أعطى مقذافا قذف وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو غرف . وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب آلاف. وأين الذين يطعنون بالمقاذيف فى صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح فى صدر الصفوف ، وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به فى الوصول . وفرق بين من يتصيد على الصقورمن الخيل العراب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب . ولئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة وان استوليتم على سكان

فكم أخلينا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم .
ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم .

(كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢-٥٩٤ حاشية رقم ٣).

بيبرس وملك صقليــة

رسالة شارل ملك صقلية الى بيبرس

كان شارل ، دوق أنجو أخو ملك فرنسا لويس التاسع ، ملكا على صقلية ، فأراد عقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان الظاهر هدية مع رسالة من استاداره هذا نصها :

بأن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا فى بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه .

(كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ، ق ٢- ٥١٣)

بيبرس وصاحب طرابلس الفرنجى

أغار الملك الظاهربيبرس على ضواحى طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول :

ما مراد السلطان فى هذه الأرض ؟ فرد عليه السلطان قائلا: جئت لأرعى زروعكم ، وأخرب بلادكم ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى .

(البداية والنهاية لإبن كثير ج ١٣ ـ ٢٥٩)

١٢٧٠م فى معسـكر الصليبيين

آثر بيبرس تمضية صيف عام ١٢٧٠م فى راحة وهدوء ، ليس من أجل المنعة واللهو ، وإنما للدفاع عن مصر ضد القديس لويس التاسع الذي كان قد وصل أمام تونس ، فضلا عن أن بيبرس كان على استعداد لمساعدة تونس ضد الفرنسيين . على أنه لم يدخر وقتـا ، ولم يشأ أن يترك الصليبيين فى فلسطين على حالهم ، خاصة وقد علم أن هناك حملة صليبية أخرى جديدة فى الطريق . وربما يكون الملك الفرنسى لويس التاسع يخطط لإرسال بعض الجنود إلى الصليبيين فى الشام للمساعدة بعدما علم بالخسائر الفادحـة التى منوا بها .

١٢٧٠م فيليب أمير مونتفورت

أرسل بيبرس إلى جماعة الحشاشين طالبا منهم اغتيال البارون الوحيد لدى الصليبيين ، فيليب أمير مونتفورت . وما يطلبه بيبرس من الحشاشين مجاب وعلى الرحب والسعة ، إذ أنه حررهم بغزواته من تلك الإتاوات التى كانوا يدفعونها لفرسان المستشفى ، هذا فضلا عن أنهم قد أصابتهم المهانة من الصليبيين الذين كانوا يتفاوضون مع المغول ، والمغول سبق أن دمروا المقر الرئيسى للحشاشين فى فارس .

وذهب أحد متطوعى الحشاشين إلى صور ، مدعيا أنه متحول إلى المسيحية ، وفى يوم الأحد ١٧ أغسطس ١٢٧٠م توغل إلى داخل الكنيسة التى كان يصلى فيها فيليب وابنه جون، وانقض عليهما وطعن فيليب طعنة مميتـة . وبذا أصيب الشرق الصليبي بضربة موجعة برغم نجاة ابن فيليب ، جون ، لكنه كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيبتـه .

♣♣♣♣♣

١١٥
الإستيلاء على قلعة الأكراد

(وتسمى أيضا قلعة الفرسان ، وقلعة الحصن وقلعة الكرك)



موقع قلعة الأكراد





مات القديس لويس هو الأخر أمام تونس ، فشعر بيبرس بالإرتياح الكبير ، وفى ١٢٧١م توغل مرة أخرى فى الأراضى الفرنجية ، وظهر فى فبراير من ذلك العام أمام حصن صافيتا ، وهو الحصن الأبيض لفرسان المعبد ، ودافعت الحامية الصغيرة عن حصنها بحماس ، لكن السيد الأعظم لنظام فرسان المعبد نصحهم بالإستسلام ، فدخلها بيبرس ، ثم واصل تقدمه الى قلعة الأكراد أو قلعة الحصن ، أو قلعة الكرك أو قلعة حصن الفرسان كما كانوا يطلقون عليها Krak des Chevaliers .

قلعة الأكراد ، نبذة تاريخية :

وصفها لورنس العرب T.E. Lawrence (Lawrence of Arabia) بأنها "احسن قلعة قائمة حتى الآن فى العالم ، تستحوز على كامل الإعجاب " . وهى أول قلعة إلى الشرق فى سلسلة من خمس قلاع بُنيت للدفاع عن ممر حمص الجبلى الذى كان يشكل الطريق بين البحر المتوسط والمدن الداخلية . وتقع على تل يرتفع حوالى ٢٣٠٠ قدم مع سقوط عمودى من ثلاث جهات .

ولقد استعصت على الحصار والقصف واعتبرت أقوى وأعظم قلعة . ولم تكن معروفة فى ذلك الموقع عندما بنيت أول القلاع الخمس . ولكن المؤكد أن صاحب حلب أعطاها فى بداية القرن الحادي عشر للأكراد تحت وصاية أمير حمص ، وأطلق عليها وقتئذ "حصن الأكراد" . وفى عام ١١١٠م استولى عليها الصليبيون بقيادة تانكريد أمير أنطاكية ، أي بعد حوالى عشرة أعوام من وصول الصليبيين إلى القدس . وكان عدد أفراد حاميتها ٢٠٠٠ جندى ، وجرى بناء تحصينات زائدة بحسب الحاجة . وفى عام ١١٤٢م ، أعُطيت لنظام فرسان المستشفى الدينى العسكرى الذى احتفظ بها حتى عام ١٢٧١م ، عندما استولى

عليها الظاهر بيبرس . وفى داخل التحصينات القوية بنيت مساكن للجنود واصطبلات للخيول ومخازن وطاحونة هوائية .

وكان للقلعة جناح واحد يحيط به سور . وقد أصبح هذا السور الجدار الداخلى لمركز القلعة الصليبية . ولم يكن هناك سوى فجوة صغيرة بين الجدار الخارجى والجدار الداخلى الذي يسيطر على القلعة بمجرى مائي يحيط به . وعلى الجدار الخارجى ثمانية أبراج مستديرة فى الجانبين الشمالى والغربى مع وجود فتحات لرمى المغيرين بالصخور . وكان الجدار الداخلى منحدرا بزاوية ٨٠ درجة ويرتفع بمقدار ٨٠ قدما .

وكانت هناك كُنيسة صغيرة شرقى المدخل ، حولها بيبرس إلى مسجـد . وفى قبالتها كان هناك ثلاثة أبراج على الجدار الجنوبى ، مع بضع درجات لولبية فى واحد منها تؤدى إلى غرفة السيد الأعظم الفاخرة .

وكان أقوى الأبراج الثلاثة متصلا بالقلعة بجدار سميك عليه الكثير من المعدات الدفاعيـة . وكانت هناك أماكن تكفى لتخزين الطعام للحامية كلها مدة عام كامل وقناة مائية تجلب المياه من الكهوف الواقعة تحت القلعة أثناء الحصار .

وفى عام ١٩٣٤م أصبحت مزارا سياحيـــــا .

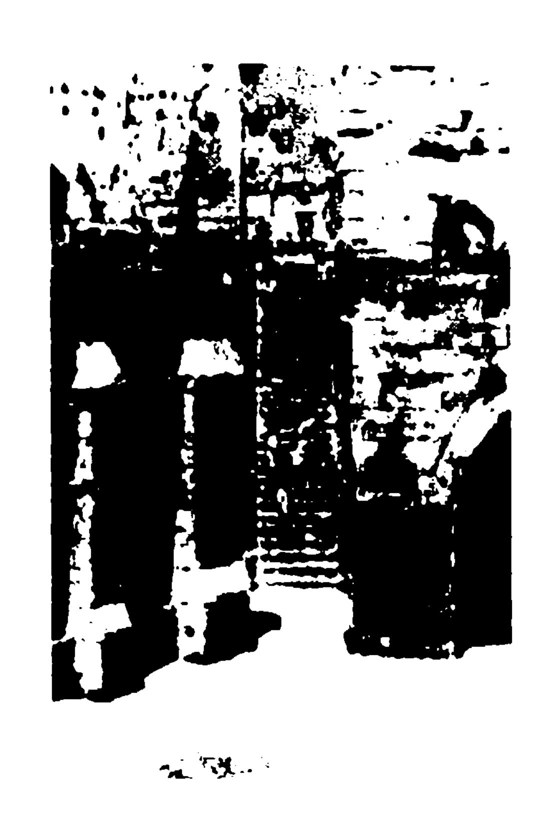
♣♣♣♣♣

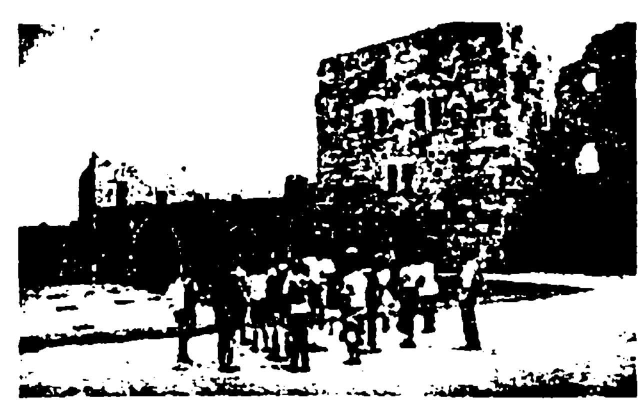




قلعـة الأكراد أو الحصن أو الفرســـان









صور مختلفـة لقلعة الأكراد من داخلها

وكان سلطان دمشق نورالدين قد هاجم القلعة فى عام ١١٦٣م ، وجرت رحى معركة فى وادى البقاع الواقع إلى الجنوب من القلعــة .

وفى ١١٨٨م بدأ صلاح الدين الأيوبى فى محاصرتها ، غير أنه بعد أن شاهد دفاعاتها قرر التخلى عن الحصار والإنطلاق شمالا معتقدا أنها منيعــة . وأعيد بناؤها بصورة نهائية فى القرن الثالث عشــر .

وفى ربيع عام ١٢٧١م حاصرها الظاهر بيبرس بجيش من مصر ، ودام الحصار مدة شهر بكامله ، وكان عــدد الفرسان آنذاك مجـرد ٣٠٠ فارس بدلا عددهم الذي كان يزيد أول الأمر على ٢٠٠٠ فارس .

وصل بيبرس إلى قلعة الكرك يوم ٣ مارس ١٢٧١م ، وفى اليوم التالى انضمت إليه فصائل من الحشاشين ، وكذلك جيش المنصور صاحب حماه يقوده المنصور نفسه . وقد هطلت أمطار غزيرة لعدة أيام عرقلت تثبيت آلات الحصار .

وفى ١٥ مارس أمطر السلطان أسوار القلعة بقصف مركـز ، وسرعان ماحدثت ثغرة فى الأسوار ساعدت المسلمين على شق مدخل إلى برج البوابة فى الحاجز الخارجى . وبقى الحال كذلك طوال أسبوعين ، تمكنت قوات بيبرس بعدها من شق طريق الى الحاجز الداخلى ، وراحوا يقتلون الفرسان الذين كانوا هناك ويأسرون من يجدونه من الجنود ، وصمد المدافعون لعشرة أيام أخر على البرج الكبير جنوب الحاجز ، واستسلموا فى ٨ إبريل ، وأرسلوا بسلام إلى طرابلس .

وهكذا كان الإستيلاء على حصن الكرك ، الذى لم يقدر صلاح الدين الأيوبى على اخضاعه ، نصرا كبيرا للسلطان بيبرس ، الذى يستطيع الآن السيطرة على كل المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد واصل زحفه متجها الى طرابلس واستولى على حصن عكار

وهو حصن فرسان المستشفى جنوب البقاع ، وقد استمر حصاره مدة أسبوعين سقط بعدها في يد بيبرس في أول مايو .

وأعاد بيبرس بناء ما تهدم من القلعة ، وبنى أبراجا جديدة ، وكذلك معقلا في الجانب الجنوبي الضعيف، بما يعني أنها احتفظت بأهميتها كقلعة عربية .



الفصل الخامس

المغول وحلفاؤهم

- هولاكو فى الطريق ١٢٥٦م
- إبادة الحشاشين فى فارس ١٢٥٧م
- خراب بغداد ١٢٥٨م
- الجورجيون والأرمن
- المغول فى سوريا ١٢٥٩م
- سقوط دمشق ١٢٦٠م
- موت هولاكو ١٢٦٥م
- معاقبة الأرمن فى كيليكيا ١٢٦٦م

١٢٥٦م هولاكــو فى الطريق

فى شهر يناير ١٢٥٦م انطلق هولاكو من بلاد ما وراء النهرعلى رأس جيش مغولى ضخم . وهولاكو هو أخو الخان الأعظم قبلاي ، وكان يعانى من نوبات من الصرع التى ربما كان لها أثرها فى وحشيته وشراسته . وكان محبوبا من المسيحيين ، إذ كانت زوجتـه الرئيسة دوكوز خاتون مسيحية نسطورية غيورة ، وكانت تتمتع بأقوى نفوذ فى بلاط هولاكو ، وقد كانت كراهيتها للإسلام شديدة ، وقد حرصت على تقديم يد المساعدة للمسيحيين من أية ملـة .

وكان هدف هولاكو الأول هو مقر الحشاشين فى فارس ، وكان عاقد العزم على القضاء على هذه الطائفة التى سبق وأن قتلت باغاتاي ، وهو الإبن الثانى لجنكيز خان . أما هدفه الثانى فكان بغداد ومنها يستطيع التقدم إلى سوريا . وكان قد أعد عدتـه بعناية لتنفيذ خططه ، فأصلح الطرق عبر التركستان وفارس وشيّد الجسور ، وأرسل الطلبات لإستجلاب عرباتٍ آلات الحصار من الصين ، ونزع القطعان من الرعاة كي يصبح الكلأ وفيرا لخيول جيشه الضخم .

وكان مع هولاكو ، بخلاف زوجته المسيحية دوكوز خاتون ، اثنتان من زوجاته الأخريات ، وابناه الأكبران . وقدمت كل قبيلة فى الكونفدرالية خُمس رجالها المقاتلين ، فضلا عن آلاف الرماة الصينيين المهرة فى إطلاق السهام المشتعلة . وقبل ثلاث سنوات كان قد أرسل جيشا يقوده أكبر قواده ، كيتبوغا النسطورى ، الذي تمكن من توطيد السلطة المغولية فى أهم المدن الإيرانية واستولى على بعض معاقل الحشاشين الأقل أهميـة ، وذلك قبل وصول هولاكــو .

♣♣♣♣♣

١٢٥٧م إبادة الحشاشين فى فارس

دخل هولاكو أراضى فارس وتقدم تقدما بطيئـا مستوليا على ديماوند وعباس أباد ، إلى أن وصل إلى سهول الحشاشين . وبظهور هذا الجيش الهائل أمام قلعـة (ألموت) وضرب الحصار المشدد عليها خضع زعيم الحشاشين ركن الدين خورشاه ، وذهب بنفسه إلى خيمـة هولاكو لإعلان خضوعـه . غيرأن قائد القلعة رفض إطاعة أوامره باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عنوة بعد أيام قلائل . ورغم أن هولاكو وعد بالإبقاء على حياة ركن الدين خورشاه ، إلا أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقوم أملا فى الحصـول على شروط أفضل من الخان الأعظم مونغكا . وقد رفض مونغكا مقابلته قائلا إنه من الخطأ إنهاك الخيول الكريمة فى مثل تلك البعثة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للحشاشين بقيتا صامدتين أمام المغـول ، وقيـل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للترتيب لإستسـلام القلعتين . وفى الطريق قُتل مع حاشيته . وجُـمع الحشاشون تحت ذريعة اجراء إحصـاء ، وقتلوا بالألوف . وبنهاية سنة ١٢٥٧م ، لم يكن فى الجبال الفارسية سوى القليل من اللاجنين الحشاشين ، أما الحشاشون فى سوريا فكانوا بعيدين عن قبضة المغول ، لكنهم تنبأوا بمصيرهم .

وكان بقلعة الموت مكتبة ضخمة تزخر بكتب الفلسفة وعلوم السحر، وأرسل هولاكو حاجبه المسلم عطاء الملك يوفينى لفحصها ، فنحّـى عطاء الملك جانبا نسخ القرآن الكريم والكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية وأحرق أعمال الزندقة . وفى نهاية سنة ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولى من همذان وعبر نهردجلة عند الموصل وسار جنوبا ، وقد انضم إليه كيتبوغا الذي سار على الضفة الأخرى ، وحاصرا بغداد وخربوها وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم .

١٢٥٨م خراب بغــداد

ظهرهولاكو أمام بغداد فى الثامن عشر من يناير ١٢٥٨م وفى الأسبوع الأول من فبراير قصف المغول أسوار المدينة قصفا عنيفا ، وبانهيار الأسوار فى العاشر من فبراير اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الغفيرة ، وعلى الفور برز الخليفة وسلم نفسه لهولاكو مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فذبحوا جميعا ما عدا الخليفة إلى أن دخل هولاكو المدينة والقصر فى منتصف فبراير. وبعد أن كشف الخليفة عن مخبأ كنوزه قُتل هو الآخر.

ودارت رحى المذابح في المدينة ، لم يسلم منها من استسلم من فوره ولا من قاوم ، وهلكت النساء مع الأطفال والرجال . ووجد مغولى فى شارع جانبى أربعين رضيعا حديثى الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرضعهم .

وترد أدق تفصيلات تلك الأحداث فى الكتاب الثانى من سلسلة المماليك المفترى عليهم : (سيف الدين قطز قاهر المغول) .

الجورجيون والأرمن

كان الجنود الجورجيون أول من اقتحم الأسوار، وكانوا على قدرهائل من الشراسة فى تخريبهم وفى قتلهم . وعلى مدى أربعين يوما تقريبا قُـتل ثمانون ألف مواطن فى بغداد ، ولم يسلم من القتل سوى القليل من المحظوظين الذين لم تكتشف أماكن اختبائهم فى بعض الأقبية ، وعدد من البنات والأولاد من ذوى الجاذبية أخذوا عبيدا ، والمسيحيون الذين لجأوا إلى الكنائس وتركوا دون إزعاج بأمر خاص من دوكوز خاتون النسطورية .

وابتهج المسيحيون فى آسيا كلها لأنباء تدمير بغداد ، وفى نشوتهم كتبوا عن سقوط بابل الثانية ، وهتفوا لهولاكو وزوجته دوكوز على أنهما قسطنطين وأمه هيلينـا . والمعروف أن

قسطنطين (الذى مات سنة ٣٣٧م) هو أول امبراطور بيزنطى اعتنق المسيحية وناصر الكنيسة ووهبها المبانى ، خاصة فى فلسطين ، وأمر أن يكون يوم الأحد عطلة رسمية ويعتبر فى الشرق قديسا ؛ وهيلينا هى أم الإمبراطورقسطنطين ، كان زوجها قد هجرها لكنها نالت مركزا مشرفا بعد اعتلاء ابنها العرش الإمبراطورى وزارت الأراضى المقدسة ، ويقول التراث الكنسى المتأخر إنها اكتشفت الصليب الذي صُلب عليه المسيح .

وعمت الفرحة كافة المسيحيين فى آسيا كلها وقالا بأن هولاكو ودوكوز خاتون ما هما إلا قسطنطين وهيلينا قد بعثا من جديد لأن الرب اتخذهما وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح .

١٢٥٩م المغول فى سوريا

ترك هولاكو بغداد خرابا ، وتحول شمالا إلى الجزيرة يحكم قبضته عليها أولا، خاصة إخضاع ميافارقين وصاحبها الكامل الأيوبى الذي تمرد على السيادة المغولية بأن صلب قسا يعقوبيا بعث به هولاكو . واستقبل هولاكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته ، وجاءه بدر الدين لؤلؤ أتابج الموصل المسن معتذرا عن مساوئه السابقة ، وسرعان ما توافد سلاطين السلاجقة ، إينا كيخوسرو وكايكوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ، وأخيرا أرسل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق إبنه العزيز لتقديم فروض الولاء والإحترامات فى اتضاع مشين لهولاكو. وحوصرت ميافارقين واستولى عليها هولاكو فى باكورة ١٢٦٠م بفضل مساعدة حلفائه الجورجيين والأرمن ، فذبحوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين ، وعُذب الكامل بأن أجبر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات .

وفى نفس العام غزا هولاكو سوريا واستولى على نصيبين والرها وحران والبيرة ، وفى باكورة العام الجديد حاصر المغول حلب وكان السلطان الناصر يوسف فى دمشق ، وكان يأمل أن يتجنب الخطر لوجود ابنه فى معسكر هولاكو ، ولما تبين أنه على خطأ عرض

قبول سيادة مماليك مصر الذين وعدوه بالمساعدة ، لكنهم لم يكونوا على عجلة من أمرهم . ثم إنه جمع جيشا خارج دمشق ، واكتشف تآمر بعض ضباطه الأتراك فى الوقت المناسب فهربوا إلى مصر ، مما أضعف الجيش بحيث كفّ الناصر يوسف عن الأمل فى الخروج لإنقاذ حلب .

ودافعت حلب دفاع الشجعان بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ، لكن الأسوار تداعت من القصف بعد ستة أيام ، وحدث المذابح المعتادة التى قتل فيها المسلمون ونجا المسيحيون بخلاف بعض الأرثوذوكس الذين لم تتضح كنيستهم فى خضم التقتيل . وصمدت القلعة لأربعة أسابيه أخرى بقيادة تورانشاه ، وعندما سقطت أظهر هولاكو رحمة غير عادية ولا متوقعة ، إذ أبقى على حياة تورانشاه لكبر سنة ولشجاعته ، واستولى على ما وجده من كنوز ضخمة ، وضم حلب إلى أمير حمص السابق ، الأشرف ، الذى كان على قدر من البصيرة جلعه يذهب إلى معسكر المغول كعميل قبل شهور قليلة .

ثم سار هولاكو إلى أن اصبح على حدود أنطاكية التى ذهب أميرها بوهمند وحموه ملك أرمينيا إلى معسكره لتقديم احتراماتهما . وقد سبق للملك هيثوم أن زود هولاكو بقوات تعزيزية وكوفئ ببعض اسلاب حلب ، وصدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بإعادة الأراضى التى تم الإستيلاء عليها فى كيليكيا ؛ كما كوفئ بوهمند بإعادة عدة مدن وقلاع كانت تابعة للمسلمين منذ انتصار صلاح الدين ومن بينها اللاذقية التى أعيدت إلى أنطاكية ، وفى المقابل كان مطلوبا من بوهمند تنصيب البطرق اليونانى إيوثيميوس فى عاصمته مكان البطرق اللاتينى .

١٢٦٠م سقـوط دمشق

لم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته دمشق ، إذ ما أن علم بسقوط حلب واقتراب المغول حتى هرب إلى مصر لاجئا لدي المماليك ، لكنه غيّر رأيه وكر عائدا

باتجاه الشمال ، فأسره المغول . وأرسلت حماه وفدا إلى هولاكو فى فبراير ١٢٦٠م قدم إليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل حذا وجهاء دمشق حذوهم ، وفى أول مارس دخل كيتبوغا دمشق وبصحبته ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة الأموية القديمة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين فى شوارع المدينة فى موكب المنتصرين .

وبسقوط المدن الثلاث العظام بغداد وحلب ودمشق بدا أن الإسلام فى آسيا قد آذن بالمغيب ، ففى دمشق بدأ بروز المسيحيين المحليين، وأظهر كيتبوغا تعاطفه مع المسيحيين، إذ كان هو نفسه مسيحيا . وللمرة الأولى منذ القرن السابع الميلادى يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية مضطهدة تتحرق شوقا للإنتقام .

١٢٦٥م موت هولاكـو

فى شهريوليو١٢٦٤م عقد هولاكو آخر مؤتمر له فى معسكره بالقرب من تبريز حضره كل أتباعه بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيثوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية ، وكان هيثوم وبوهمند فى حالة من الخجل أمام هولاكو ، إذ اختطفا فى العام السابق بطرق أنطاكية إيثوميثيوس الذي أصر هولاكو فى عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وأخذاه إلى أرمينيا واستبدلا به البطرق اللاتينى أوبيزون فى أنطاكية . وكان هولاكو مدركا لأهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أتراك الأناضول ، فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطورية فى القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته . واختار الإمبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السفاح ، ماريا ، ورافقها إلى تبريز البطرق إيوثيميوس الذى كان لاجئا فى القسطنطينية والذى عاد الى الشرق بدعوة صريحة لا شك فيها من هولاكو . وفى ٨ فبراير من العام التالى ١٢٦٥م مات هولاكو بعد أن سحب قسما كبيرا من قواته وأرسلها الى موطنه شرقا نظرا للخلافات العائلية التى أعقبت موت الخان الأعظم مونغكا سنة ١٢٥٩م ، الأمر الذى يسّر للمماليك الإنتصار فى عين جالوت .

١٢٦٦م معاقبة الأرمن فى كيليكيـا

وفضلا عن ذلك الزواج الكاثوليكى بين هيثوم ملك أرمينيا وهولاكو المغولى ، والمتمثل فى التحالف الصريح للهجوم على العالم الإسلامى ، قام هيثوم فى سنة ١٢٦٤م بمهاجمة عين تاب ، فوجّـه السلطان بيبرس إلى حلب جيشا من عساكر حماه وحمص .

وأثناء أن كان بيبرس يتجول بحملاته فى الجليل ، تجمع فى حمص الجيش المملوكى الثانى بقيادة أقدر الأمراء ، قلاوون الذى أغار على حصنى قوليا وحَـلبا ومدينة أرقا التى تتحكم فى مدخل طرابلس من البقاعَ ، ثم اتجه شمالا ليلحق بجيش المنصور صاحب حماة . وسارجيشاهما المتحدان إلى حلب وانحرفا غربا إلى داخل كيليكيا . وكان الملك الأرمينى هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا ، وكان قد حاول فى سنة ١٢٦٥م على أثر موت هولاكو أن يتصالح مع بيبرس ، وكانت البحرية المصرية تعتمد فى بناء سفنها على أخشاب جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، فكانا يأملان فى استغلال تلك الغابات كورقة تفاوض . وفى عام ١٢٦٦م علم هيثوم بأن هناك هجومـا مملوكيـا وشيكا ، فذهب إلى بلاط الخان المغولى فى تبريز يستجدى مساعدة المغول . وعندئذ اندلع القتال فى كيليكيا. وكان يقود الجيش الأرمينى إبنا هيثوم ، ليو وثوروس ، وانتظر الجيش الأرمينى عند البوابات السورية بينما كان فرسان المعبد فى بجراس يحرسون جناحيه . بيد أن المماليك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس ، فسارع الأرمن لإعتراض طريقهم أثناء هبوطهم فى السهل الكيليكى ، ونشبت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦م قرب دربساك هلك فيها الجيش الأرمينى أمام الأعداد الغفيرة ، وقتل ثوروس ابن الملك هيثوم ، وأسر الأخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا . وأثناء أن كان قلاوون وأمراؤه المماليك ينهبون ميناء أياس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور صاحب حماه جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نـهب القصر وحرق الكتدرائية وذبح بضعة آلاف من السكان . وفى نهاية سبتمبر انسحب

المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريبا وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، فقط ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرأ المملكة الكيليكية من تلك الكارثة قط ، ولم تعد قادرة على أن تلعب أكثر من دور سلبى فى سياسات آسيا .

وحاول هيثوم استرداد ابنه الأسير من بيبرس ، ولم يفلح فى ذلك إلا بعد أن تخلى للسلطان عن عدة مراكز هامة من بينها دربساك ومرزبان ورعبان ، وكلها تتحكم فى طرق المواصلات بين أرمينيا وبلاد الشام والعراق .



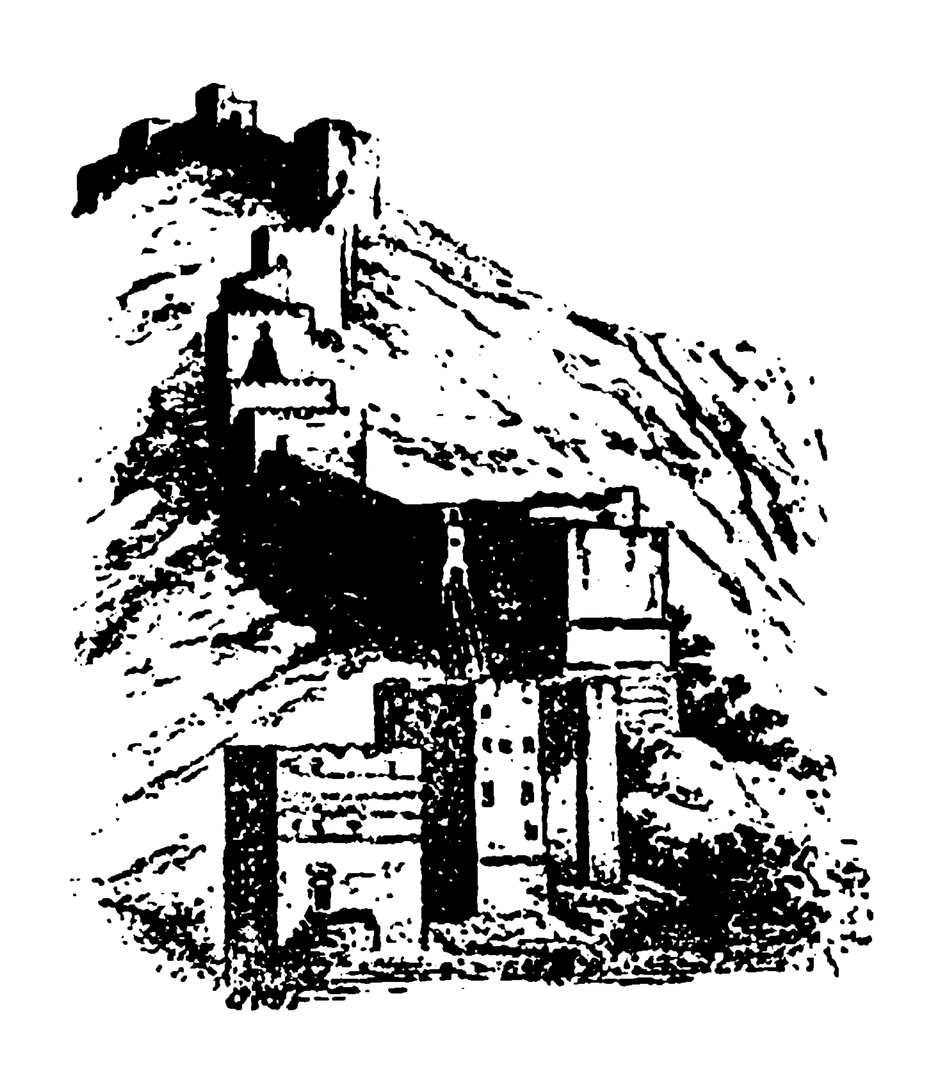
الفصل السادس

١٢٦٨م سقوط أنطاكية

♣ نبذة تاريخيـــة عن أنطاكيـــة

♣ الإستيلاء على أنطاكيـــة

♣ رسالة بيبرس إلى بوهمند أمير أنطاكية بعد الاستيلاء عليها



تحصينات أنطاكية حوالى سنة ١٢٠٠م

نبذة تاريخية عن أنطاكيـة

يرجع تاريخ أنطاكية إلى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أنشأها أحد قواد الإسكندر الأكبر ، سيليوكوس الأول نيكاتور، وجعلها عاصمة امبراطوريته .

ولأنطاكية أهمية خاصة فى تاريخ المسيحية ، ففيها بشـر بولس لأول مرة ، وفيها أطلق على أتباع يسوع إسم المسيحيين بادئ ذي بدء . إذ جاء فى الكتاب المقدس، العهد الجـديد ، سفر أعمال الرسل:

(ودُعيَ التلاميـذ مسيحيين فى أنطاكيـة أولا) (أعمال الرسل ، ١١: ٢٦) .

وبانتشارالمسيحية ، أمسـت أنطاكيـة واحدة من أربع بطريارقيات رئيسية مع القـدس والإسكندرية وروما . وهى اليوم مقر بطريارقية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذوكسية .

وظلت أنطاكية مدينة هامة فى الإمبراطورية الرومانية لعدة قرون ، وفيها أقام الإمبراطور قسطنطين الثانى كتدرائية ثمانية الأضلاع أصابها زلزال عام ٥٢٦م . واحتل الفرس المدينة فى ٥٤٠ م، ثم استعادها البيزنطيون ، لكن احتلها العرب المسلمون عام ٦٣٦م . وبعد ما يزيد على ثلاثة قرون استعادها الإمبراطور البيزنطى نيسفوراس فوكاس الثانى سنة ٩٦٩م ، ثم استولى عليها الأتراك السلاجقة سنـة ١٠٨٥م . وبعد ثلاث عشرة سنة ، أي فى عام ١٠٩٨م ، احتلها الصليبيون فى حملتهم الصليبية الأولى ، وأصبحت عاصمة إمارة أنطاكية ، إلى أن استولى عليها فى القرن الثالث عشر الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سنـة ١٢٦٨م .

♣♣♣♣♣

١٢٦٨م الإستيلاء على أنطاكيـة

كان الأمير بوهمند السادس أميرا على أنطاكية وطرابلس ، وكانت أنطاكية وقت أن زحف عليها بيبرس تحت إمرة ياورها الكونستابل سيمون مانسل ، وكانت زوجته أرمينية وفى نفس الوقت تربطها بزوجـة بوهمند صلة قرابة .

وكانت أسوار المدينة قد أصلحت ورممت ترميما جيدا ، لكن الحامية لم تكن كبيرة العدد بما يكفى لحراسة الأسوار الممتدة امتدادا كبيرا .

وفى حركة طائشة ، تهور الكونستابل وقاد بعض جنوده خارجا من المدينة فى محاولة للتفاوض مع بيبرس ، غير ان جنود بيبرس أسروه وأمروه بأن يتدبّر ترتيب استسلام الحامية . وحاول الكونستابل الإتصال بقواده داخل المدينة وإقناعهم بالإستسلام ، لكن قواده رفضوا الإستماع إليه .

وفى اليوم التالى هاجم جنود بيبرس المدينة ، لكنهم لم يتمكنوا من اقتحامهـا ، وافتتحت المفاوضات مرة أخرى ، ولكن بلا نجــاح .

وفى ١٨ مايو ١٢٦٨م قام الجيش المملوكى بهجوم عام على الأسوار كلها ، ونشطت آلات الحصار وراجمات الأحجار والأثقال ، وأفلحت فى إحداث ثغرة فى الدفاعات الممتدة أعلا جبل سلبيوس ، وتدفق المسلمون من تلك الثغرة إلى داخل المدينـة . وعلى الفور أمر أمراء السلطان بإغلاق بوابات المدينة حتى لا يتمكن أي فرد من الهرب ، وصدرت الأوامر بقتل كل من يتصادف وجوده فى الشوارع ، وارتكبت مذبحة كبيرة لم يسلم منها سوى الجبنـاء الذين لم يفارقوا بيوتهـم ، على أنهم بقوا على قيد الحياة لكي ينهوا أيامهم فى الأسـر . وتمكن بضعة آلاف من الهرب مع عائلاتهم ولاذوا بالقلعة الضخمة الواقعـة على قمة الجبل . نجوا بحياتهم ، لكن الأمراء اقتسموهم .

وأصيب المؤرخون – والمسلمون من بينهم – بالصدمة لتلك المجزرة التى وقعت . فقد أزهقت فيها أرواح كثيرة بريئة ، وسالت دماء غزيرة . وتساءل بعض المؤرخين : هل كان بيبرس ينتقم لتلك المجزرة الرهيبة الأكثر هولا التى ارتكبها الصليبيون فى القدس بادئ الأمر عام ١٠٩٩م ، والتى ملأت شوارع القدس ومسجدها بجثث ودماء المسلمين واليهود أيضا ، بحيث هجرها الصليبيون قرابة أسبـوع ؟

وفى اليوم التالى ١٩ مايو ، أمر السلطان بجمع الأسلاب وتقسيمها . وبرغم أن الإزدهار الذى كانت تتمتع به أنطاكية قد اضمحل لعدة قرون ، إلا أنها كانت أغنى المدن الصليبية ، وكانت كنوزها هائلة ، ووجد المنتصرون أكواما من الذهب والفضة ، وعملات كثيرة وفيرة بحيث كانت تعطى فى أوعية من كثرتها . وكان عدد الأسرى كبيرا بحيث لم يكن هناك جندى فى جيش السلطان لم يحصل على عبد ، وما بقى من العبيد انخفض سعره انخفـاضا شديدا ، فكان الصبي يباع باثنى عشـردرهما والبنت بخمسة دراهم ، وسُمِح للمواطنين الأكثر ثراء بافتداء انفسهم . وأطلق سـراح الكونستابل سيمون مانسيل وتقاعد فى أرمينيا .

وعلى الرغم من أن انطاكية بقيت مع الصليبيين طوال ١٧١ سنة ، وبرغم أنها اشتهرت بكونها عاصمة أول إمارة أقامها الصليبيون فى الشرق الفرنجى ، فإن أحوال المسيحيين الوطنيين لم تتحسن إلا بقدر ضئيل للغاية ، وكان ذلك بمثابة عقاب لهم لما قدموه من مساعدة لا للفرنج وحسب ، وإنما للعدو الأخطر على الإسلام ، وهم المغول . وقد كان دمارها ضربة مرعبة للهيبة المسيحية ، وجر وراءه انهيارا سريعا للمسيحية فى شمال سوريا .

♣♣♣♣♣

١٤٢

رسالة بيبرس إلى بوهمند أمير أنطاكية
بعد الإستيلاء عليهـا

قد علم القومص الجليل المبجل ، المعزز الهمام ، الأسد الضرغام ، بيمنـد (يعنى بوهمند) فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القمصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قُتلت الرجال واستُخدمت الأولاد وتملكت الحرائر، وكيف قطعت الأشجارولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر . وكيف نُهبَتْ لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشى ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشى . هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلتَ فزعا: علىّ بهذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهى من أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتك تلك المغاير(يعنى الكهوف وهى جمع مغارة) التى هى فى رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التى هى فى التخوم مخترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سُقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف

وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وهنا نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عمّ: كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشري شعبان ، ونزولنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان . وفى حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كندا سطيل (يعنى حاكم القلعة باللاتينية) ، فسأل مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وإن رأيهم فى الخير مختلف وقولهم فى الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول فى الإنذار والآخر، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففى بعض ساعة مرّ شأن المرشان (يعنى منظم الحفلات والمجالس) وداخل الرهْبُ الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان (يعنى حارس القصر) ، وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شئ من الدنيا ، فما بقى منا إلا وعنده شئ منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهّابة فيها تصول والكسّابة فيها تجول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار، وداماتك (يعنى سيداتك) وكل أربع منهم تباع فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ،

وصحفها من الأناجيل المزوّرة قد نشرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت. ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة قد دخلوا فى المملكة . ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالك قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت ، لكنت تقول : ياليتنى كنت ترابا! وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت فى السويدية بمراكبك فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دير كوش وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين وجميع ما كان فى بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وفرقناهم فى الدانى والقاصي ، ولم يبق شئ يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما سمي بالعاصى . وقد أجرى دموعه ندما وكان يذرفها عبرة صافية ، فما هو أجراها بما سفكناه فيه دما .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلا وأما أسيرا ، وإما جريحا وإما كسيرا ، وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يسلم

أحد يخبرك بما خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتتحقق الأمر على ما جرى .

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبرا ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبرا .

قال : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتـاب .

(كتاب السلوك للمقريزي ج١ ، ق ٣ ٩٥٥-٩٦٩)

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضى بن خلكان مبشرا بفتح أنطاكية

من إنشاء محى الدين بن عبد الظاهر

أدام الله سعادة المجلس السامى القضائى ، ولا برح يؤثر البشائر حشايا المنابر، ويجرى من السرور الهاجم عيون المحابر، ويسجد لها قلم الناظم والناثر، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول للآخر. هذه المكاتبة تتحدث بنعمة الله التى تهلل لها وجه الإيمان ؛ وهلل بها من أهله كل لسان ، وجاءت بحمد الله حلوة المجتنى حافة بالنصر من هنا ومن هنا ، وذاك بفتح أنطاكية التى لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب ، ولا خرق حديث فتحها الأسماع ولاهجس فى القلوب ، وادخرها الله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز، ويجعلها بابا لما يليها من بلاد الكفرنلج منه بمشيئة الله وما ذلك على الله بعزيز. وهو أنـا لما فرغنا من فتوحاتنا التى سبق بها الإسلام ، وإشاراتنا التى خصت

وحصت طرابلس الشام ، ثنينا العنان إلى هذه الجهة ، فشاهدنا منها ما يروق النواظر، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأنس والوحش الطائر للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف فى يوم سيرا ، ولا يدرك الناظرمن أولها لها أخيرا ، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب ينسلون ومن كل هضبة ينزلون ، وفى ظلال كل مطهم يتقيلون . وكان نزولنا عليها فى يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم ، فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا إلا ورسلهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن ما يقتضى. فما ألوى عليهم حلمنا ولا عرج ، ولا نفس عنهم كربة ولا فرج ، فزحفنا إليها فى يوم السبت بكرة وهو رابع الشهر، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهار وقد دخلت عليهم من أقطارها ، وتسورالعسكرالمنصور من أسوارها ، وامتدت ألسنة الصوارم وأسنّة الرماح ، وشهرت البيض الصفاح ، وأريقت الدماء واتحيت النساء ، وغنمت الأموال وجندلت الأبطال . ووجد العالم من التحف والنعم ما لا كان يمر فى خلد ولا يخطر فى بال ، وكتابنا هذا واليد الإسلامية لها متسلمة وفيها متحكمة . فالمجلس يأخذ حظه من هذه البشرى ويرى فيها هذه الأية الكبري . وما نريهم من آية إلا وهى أكبر من الأخرى . ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله فى أحسن رونق من النصرة ، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة . فليشعها المجلس فى كل باد وحاضر، ولينشر خبرها على أكباد المنابر . والله يكرمه يجعل سعادته من أتم الذخائر ، إن شاء الله تعالى . كتب رابع شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وستمائة.

(ذيل مرآة الزمان لليونينى ج ٢ ، ٣٨٢-٣٨٤)

الفصل السـابع

بيبرس
ومملكة النوبة المسيحية

دخل الإسلام مصر سنة ٦٤٠م ، وبعد أحد عشر عاما تمكن والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح من التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة النوبة التى كانت آنذاك مملكة مسيحية وحاصرها حصارا شديدا حتى طلب ملكها الصلح . وتم الإتفاق بين الدولتين مصر والنوبة بما أطلق عليها آنذاك بمصطلح البَقْط (أي العهد) الذى ينص على أن يرسل ملك النوبة لبيت المال فى مصر عددا من الرقيق بعدد أيام السنة (أي ٣٦٥ عبدا) وفى المقابل ترسل مصر إلى النوبة ألف أردب من الغلال سنويا بالإضافة إلى كميات أخرى من الحبوب والأقمشــة .

ويجمع المؤرخون على أن ذلك البقط لم يكن يعنى جزية ولا خراج ، وانما هو نوع من الإتفاق الإقتصادي بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية . ودام ذلك الوضع حتى بدأت الحملات الصليبية ، وبذا ظهرت النعرة الدينية بين الجارتين .

ووجد ملوك النوبة فى انشغال بيبرس بتثبيت دعائم دولة المماليك وحروبه ضد الصليبيين والمغول والأرمن ، فرصة سانحة للعدوان على مصر . وفى سنة ١٢٧٢م انتهز داود ملك النوبة فرصة انشغال السلطان بيبرس بتوجيه جيوشه ضد أرمينيا ، وهاجم أسوان وأسر الكثير من أبنائه المسلمين ، كما أغار على عيذاب واعتدى على أبنائه المسلمين على نحو يدل على تغلب النعرة الصليبية على مملكة النوبــة .

وفى عام ١٢٧٥م جاء الى بيبرس ملك النوبة المخلوع (شكندة) شاكيا ما فعله ابن أخيه الملك داود ملك النوبة لا من خلعه من العرش وحسب ، وإنما من با لغ الإساءة التى لحقته دون مراعاة لصلة القربى . وعلى الفور أعد بيبرس حملة كبيرة بصورة خاصة وأمّر عليها الأميرين شمس الدين أقسنقر وعزالدين الأفرم . وانطلقت الحملة فى يناير ١٢٧٦م ، وصحبها شكندة نفسه وبأوامر من بيبرس لقائدى الحملة بتسليم شكندة كل ما يفتحانه من بلاد النوبة . ونجحت الحملة نجاحا باهرا كان من نتيجتـه أن هرب الملك داود بعد أن قتل وأسر أغلب رجاله ، ومن بين الأسرى أخوه شنكو وأمه وأخته . واستقبل بيبرس الحملة فى

القاهرة بمظاهر الحفاوة ، واستعرض الجمع الغفير من الأسرى . وقد أمر بيبرس عند بيع الأسرى عدم التفريق بين المرأة وغلامها ، وألا يباع أحد من الأسرى ليهودى أو مسيحى . ولم يترك جيش بيبرس النوبة إلا بعد أن قدم شكندة العهد والميثاق بطاعة السلطان بيبرس . وفيما يلى ما ذكره كل من النويري فى "نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٥٩" ومفضل بن أبى الفضائل فى "كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦" من نص اليمين التى حلف عليها شكندة ملك النوبة الجديد بدنقلة للظاهر بيبرس سنة ١٢٧٦م ، وجاء بـه :

> والله ، والله ، والله! وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر، والسيدة الطاهرة العذراء ... اننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ...

أما شروط الإتفاق بين بيبرس وشكندة فكان من أهمها :

♣ أولا: تنفيذ اتفاقية البقط القديمة ، أي يرسل ملك النوبة الرقيق الى مصر مقابل ارسال الغلال إليه . وتقرر أن يرسل شكندة بعض الهدايا الإضافية للسلطان ، يحددها المقريزي بثلاثة فيلة ، وثلاث زرافات ، وخمسة فهود إناث ، ومائة من الصهب الجياد ، ومائة من الأبقار الجياد .

♣ ثانيا : أمتداد السيادة المصرية بصورة فعلية على بلاد النوبة . وهذه هى المرة الأولى منذ الفتح العربى لمصر . ونصت على أن يخصص نصف دخل بلاد النوبة لسلطان مصر ، ويبقى النصف الأخر لعمارة البلاد وحفظها .

♣ ثالثا : تعهد شكندة ملك النوبة بالعمل على الحصول على كل متعلقات الملك داود وأسرته وارسالها الى السلطان .

♣ رابعا : عُرض على شكندة الإسلام أو الجزية أو القتال ، فاختار الجزية ، وتعهد أن يدفع كل فرد من رعاياه دينارا فى كل سنة .

♣ خامسا : اطلاق سراح المسلمين ، وخاصة الذين أسرهم داود من أبناء اسوان وعيذب ، وأفرج عنهم وأعيدوا الى أوطانهم . كما تسلم المماليك عشرين أميرا من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت تصرف السلطان .

ويروى المقريزي فى (السلوك ج ١ ص ٦٢٣) أن بيبرس أنشأ ديوانا للنوبة فى القاهرة وعهد إلى الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا الإشراف على الجزية والخراج الواردة من النوبة وتعيين العمال لذلــك .

وفيما بعد وقع داود ، ملك النوبة السابق ، أسيرا لدى بعض خصومه ، فأرسلوه الى السلطان بيبرس الذى أمر بحبسه مع أمه وأخيه إلى أن مات فى سجنــه .



خاتمـــــة

وفـاة بيبرس

لم يعش بيبرس طويلا بعد مغامرته فى الأناضول . وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستنادا إلى بعض المؤرخين مات متأثرا بجراحاته التى أصيب بها فى حملته الأخيرة ؛ واستنادا إلى البعض الآخر أفرط فى شراب القـُمـَز، وهو لبن الفرسة المخمـّر الذي يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هى أنه أعد القمز المسموم للأمير الأيوبى صاحب الكرك ، القاهربن الناصر داود ، الذى كان مع جيشه ، والذي كان قد أساء إليه ، ثم شرب بإهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يوليو ١٢٧٧م .

"ولقد أراح موته أعدى أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيبرس سلطانا كانت الأراضى الفرنجية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكيا ، مع وجود قلاع ضخمة فى داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذي استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج فى مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتى عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها إزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمرا حتميا . وكانت شخصيته تتميز بقليل من الخصال التى أكسبت صلاح الدين الإحترام حتى من أعدائه ... وكحاكم ، كان من أعظم حكام زمانه . "

(من ترجمتنا لموسوعـة تاريخ الحملات الصليبية)

(ج ٣، ص ٤٠١ للسير ستيفن رانسيمان)



Tombeau de Baibars qui expulsa les croisés du Krak, ce que Saladin n'avait pas réussi à faire

قبر بيبرس الذي طرد الصليبيين من قلعة الكرك
الأمر الذي لم ينجح فيه صلاح الدين

المراجع العربيـــة

(مرتبـــة ترتيبـــا أبجديـــا)

١ ـ **ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد** : (زبدة الحلب من تاريخ حلب) . **تحقيق** سامى الدهان، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨م .

٢ ـ **ابن تغري بردي** : (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) .

٣ ـ **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل**:(البداية والنهاية) ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١هـ .

٤ ـ **أبو الفدا** : (المختصر في أخبار البشر) .

٥ ـ **أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل** : (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦م .

٦ ـ **ديورانت ول** : (قصة الحضارة) : تعريب محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م .

٧ ـ **سيدة ف . صديق** : بيبرس الأول سلطان مصر.

٨ ـ **السير ستيفن رانسيمان**: تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة نورالدين خليل .

٩ ـ **السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن**: (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة .

١٠ ـ **عبد الحميد يونس** : (الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي) .

١١ ـ **عبد العزيز خويطر**: بيبرس الأول: مجهوداته وإنجازاته.

١٢ ـ **عزالدين محمد بن على بن شداد** : (تاريخ الملك الظاهر).

١٣ ـ **القلقشندى ، أبو العباس أحمد** : (كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ ــ ١٩١٩م .

١٤ ـ **محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر** : (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) ، واختصرها شافع بن على فى (المناقب السريّة فى السيرة الظاهرية) .

١٥ ـ **مصطفى زيادة** : سلاطين المماليك حتى عام ١٢٩٣ م.

١٦ ـ **المقريزي ، تقى الدين أحمد بن على** : (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك) ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤م .

١٧ ـ **النويرى** : (نهاية الأرب فى فنون الأدب) .

١٨ ـ **الهمذانى ، رشيد الدين بن فضل الله** : (جامع التواريخ فى تاريخ المغول) ، تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠م .

١٩ ـ **اليونينى ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد** : (ذيل مرآة الزمان) ، حيدر أباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م .

المراجع الإنجليزيـــة

English References

01. Amitai-Preiss, Reuven. *The Mamluk-Ilkhanid War*, 1998

02. Ashtor, Elihayu, *Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (1976).

03. Dunnigan, James F. Impact of the Mongols on Medieval Population. Cry "*Havoc!*" 23:25-26 (1998.

04. Glubb, John B. *The Lost Centuries*. London: Hodder & Stoughton, 1967.

05. Glubb, John B. *A Short History of the Arab Peoples*. London: Hodder & Stoughton, 1967.

06. Khowaiter, Abdul-Aziz. *Baibars the First: His Endeavours and Achievements*. London: Green Mountain Press, 1978.

07. Marshall, Robert. *Storm from the East*. London: BBC Books, 1993.

08. Muir, William. *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt AD 1260-1517*. Amsterdam: Oriental Press, 1968.

09. Peter Turaow. *Az-Zahir Baibars, Contribution to the History of the Near East in the Thirteenth Century, trans. Muhammad Gadid.*

10. Robinson, John. *Dungeon, Fire & Sword*. New York: M Evans & Company, 1991.

11. Saunders, JJ. *A History of Medieval Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd, 1965.

12. Sir Steven Runciman, *A History of the Crusades,* Penguin Books, Cambridge University Press, London, 1991.

13. Von Grunebaum, GE. *Classical Islam: A History 600-1258*. trans. Kathleen Watson New York: Barnes & Nobles Books, 1996.



فهرس الخرائط والصور

فهرس الرسـائل

فهرس الجداول

المحتويـات

♣♣♣♣♣

المؤلـف

مترجم بالأمم المتحدة ، وعضو اتحاد كتاب مصر .
له تراجم ومؤلفات منها
الترجمـــة :
* المخدرات : حقائق اجتماعية وطبية ونفسية.
* تاريخ النقود.
* رجل الأقدار (وقصص أخرى)
* سياسة الأرض الحضرية .
* موسوعة الحملات الصليبية ، ٣ مجلدات ، للسير ستيفن رانسيمان .
المؤلفـــات :
* أمضى أكثر من عشرين عاما فى تأليف قاموس الأديان الكبرى الثلاثة (اليهودية ، المسيحية، الإسلام) بالإنجليزية والعربية .
* شرع فى تأليف سلسلة (المماليك المفترى عليهم) ، صدر منها :
١ ـ شجرة الدر (قاهرة الملوك ومنقذة مصر) .
٢ ـ سيف الدين قطز (قاهـــر المغـول) .
٣ ـ الظاهر بيـبرس (رعب الصليبيين) .

هذا الكتاب

الظاهر بيـبرس
*إسمه على كل لســان ، وسيرته باقية لكل زمان . بطل همام ، وشجـاع مقـدام . قويت بقوتـه البلاد ، ورفع أكاليل الغـار فوق العباد .
*أجمعت كل المراجع على شجاعته. فيقول المقريزى "كان شجاعا عسوفـا عجـولا".
*ويقول أبو المحاسن " كان رحمه الله ملكا شجاعا ، مقداما غازيا ، مجاهدا مرابطا ، خليقا بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفســه " .
*ويقول الذهبى "والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أياما بيضا فى الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات متعـددة" .
*ويقول عبد الحميد يونس إنه "الذى ينتظره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط " .
*كما كان مسلما متشددا ، ومحسنا كريما ، وراعيا للأخلاق بين رعيتـه ـ إذ أصدر فى عام ١٢٧١م مرسوما بمنع الخمور .
*وقديما قال فيه أحد الشعراء المعاصرين له

تدبـر الملـك من مصر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوبى

الفتح
للطباعة والنشر
أمام كلية حقوق الاسكندرية
ف: ٤٨٤٠٦٦٤ - ت:٤-٤٨٧٠٢٠٣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥/١٦٩٥٥
الترقيم الدولي
I.S.B.N
977-5245-47-8